



محمد عبد الحليم عبد الله

الزمن
بقية

مطبوعات مكتبة مصر

للزمن بقية

تأليف

محمد عبد الحليم عبد الله

الطبعة

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الجيزة

دار مصر للطباعة

سعيد جوده السحار وشركاه

القسم الأول

ذكريات أول مغامرة جدية في حياته عادت إليه .. أيامها كان في التاسعة عشرة من العمر .. رسب في شهادة إتمام الدراسة الثانوية ..

الرسوب أيامها كان عارا ..

لكنه في قرارة نفسه كان يعتقد شيئا غريبا .. هو .. أن الشهادة أخطأت جدا إذ لم تمنحه نفسها وأنه نوع من العقول والميول ترفضه الشهادات لغباؤها !! « أى نعم » ..

كان يومئذ واقفا عند مدخل كوبرى « طلخا » في مدينة « المنصورة » يقلب الصحيفة التى نشرت أرقام الناجحين ويضحك ، ويضحك .. نظر إلى هندسة الكوبرى ولم يدر لماذا تذكر صورة نفسه . أغمض عينيه يعتصرهما وزم شفتيه وقلص وجهه كأنما يبتلع شيئا وريقه جاف . وحركة المرور على الكوبرى رعاء . وبنات يتهادين على النيل ينظرن إلى قامته المديدة ووجهه الباهر من بين أهداهن ثم يلقين نظرة على الصحيفة المطوية في يده . ورمته إحداهن بنكتة . كانت من بنات البلد سائرة مع أختها بعد أن رأت منظره التعيس والصحيفة والحيرة فلم تزد على أن قالت وقد نظرت إليه : « ورقة طلاق !؟ » كأنها خمنت السر .

عندئذ تحرك ليعبر . لم يكن ناقما على نفسه .. بل كان في قلبه نقمة حقيقية على الناس : « لو أن أحدا يفهمنى » كأنه يتكلم بلغة وهم يتكلمون بغيرها والإشارات ممنوعة .. شعر أن منطقته مثل المناطق « المنزوعة السلاح » تقع بينه وبين الناس .. خلاء .. خلو تماما .. لكنه يحترم نفسه ويقدرها ..

لماذا ١٩! إنه يملأ كل كرسي يجلس عليه إلا كرسي « الفصل » ويفهم روايات شكسبير ما لم تكن مقررة عليه أما إذا قررت فلا .. وقد مثل دور « الملك لير » في حفلة باللغة الإنجليزية .. اختاروه فيها للون وجهه وعظمة سمته ونظرتة السماء .. وليلتذ صفقوا له .. كل الناس قالوا : « سيكون له مستقبل .. » .

وها هو ذا يعبر الكوبرى والليل ينزل ووقع حوافر الخيل المشدودة إلى العربات يقطعن مؤذنا بالسرعة ..

ونشر الصحيفة للمرة الخمسين وهو سائر يتسكع بجوار جمالونات الحديد وتمتم : « كلهم يقولون لى سيكون لك مستقبل .. فأين هو ١٩ » .. وقلب كفيه ثم قذف بالجريدة فى النهر .. وأدركه فأل سيئ .. كأنما غرق كل شيء فى حياته بغرق الصحيفة وعيناه تتابعانها حتى عبرت منطقة النور .

وعادت إليه مرة أخرى ذكريات العالم « التحتانى » الذى عرفه فى أخوف صورة . وذكرى ليلة مقمرة . بعثر القمر فيها أشعته على المستنقعات والغاب والماء الضحل . التى ألقى عليها نظرة أخيرة قبل تجربة الظلام .

كان يشعر أنه سيرى قريته للمرة الأخيرة وأمه وأباه وكل أفراد أسرته . ولذلك بدت له مناظر المستنقعات المألوفة فى هذه المنطقة رمزا فى حلم من الأحلام . أصوات غريبة فى تلايف الغاب الكثيف أو المتناثر والنور عليها يستوى مع الظلمة : « ما فائدة أن يضيء القمر مثل هذا المكان ١٩ » .

وفاحت من المطبخ رائحة توابل رسمت خريطة جنوب شرقى آسيا أمام خياله لكنه ما لبث أن عاد بخاطره إلى نور القمر على الماء والمستنقع والأصوات التى تصعد من هناك . وحشية الطبيعة . والطريق النشع أو المرتفع أو المنخفض الذى قطعه إلى قريته .. حالات شتى .. والخوف والكبرياء اللذين مازجا روحه فى الطريق .

لاح له أول ما رأى ذلك القنديل الكبير المتدلى من سلك أمام بهو الدوار . بحيث يجلس أبوه العمدة وحوله « شهاد الزور » .. أصدقاؤه . ووقف برهة ليتسّم . كان ممكنا أن يتسّم وهو سائر لكنه كأنما أراد أن يتلذذ بهذا الخاطر فألغى من أجله كل شيء حتى الحركة .

كان يسمى كثيرا من حوله « شهاد الزور » وكان أهل القرية يرددون هذه العبارة لأن كل الذين حول أبيه لم يخالفوه في الرأي ولم يروا الحق إلا في اتجاهه الشخصي . وعندئذ .. خفق قلبه قليلا . فالويل له من ألسنتهم . وسينضم إليهم لسان شقيقه الكبير طه النجومى وسينظر إليه أبوه نظرات نارية هي نفسها التي دفعت به إلى الظلام الخفيف .. ثم قال في نفسه :

« دخلت على أبى ليلتذ وحوله شهود الزور ورأيت الأعين كلها تسأل وكانت الإجابة غاية في الوضوح : فقد سكت ، وانبرى الشقيق الأكبر الدلق اللسان يؤنب في تفلسف أمام هذا الجمع : « الدنيا محتاجة لأنواع كثيرة وغريبة .. الدنيا دكان عطار .. فيه السموم والتوابل والأدوية .. الدنيا يا صلاح مثل الفرقة التمثيلية المتنقلة التي تزور القرى .. فيها الملك والمهرج يا صلاح .. الدنيا يا .. » .

وعندئذ نظر إليه « صلاح » نظرة استعلاء . كأنه غير ذلك الذى رمى بجريدة المساء فى النهر . بورقة الطلاق . ووجم شهود الزور حول العمدة الذى كان الشرر يتطاير من عينيه . وأحس صلاح أنه فى دور روائى . وتأهب تماما للتعبير عن حقيقة نفسه . وأخذ سمثا يثير الحفيظة .

وكان ممكنا جدا أن يمر المشهد بسلام ، لولا تدخل عم « محمد الجندى » بكلمة حولت مجرى الحوادث . وكان واقفا وبين يديه صينية بانتظار جمع الفناجيل التى شربت . وكان لهذا الرجل مكانة خاصة عند الأسرة وعند الناس فقد كان يقول الحق الصارخ أو الجارح بلا أدنى مبالاة . وله دالة على الصغير

والكبير على الرغم من لسانه السليط . لكن هذا المجتمع الصغير كان يقبل منه كل شيء بعد أن ثبت له أن هذا الرجل ليس له في الدنيا غاية فكأنه « ضمير » عجوز يحتملون تأنيبه لأنه الآن في طريقه إلى الموت .. وليلتذ صاح « عم محمد » : « المثل يقول اللي ما يعرف الصقر يشويه . والله ما فيكم مثله » .

وزاد هذا من هياج الشقيق الكبير لكن الشاب ساعته أحس أن شهادة هذا الرجل شيء لم يدخله تزوير قط . والكلمة البسيطة الصادقة تفعل في النفس ما لا تفعله أعمق حكمة . لذلك بدأ الشاب يلبس دورا جديدا . دورا هو في حقيقة الأمر عقيدته الشخصية في نفسه ، وأنه نوع من العقول والميول ترفضه الشهادات لغبائها . فنظر من أعلى قامته قائلا لمن حوله في كبرياء عظيمة :

— إنا في غنى عن الشهادات ..

فرد أخوه في سخرية فلاح مدرب :

— إذن عزمت على احتراف الزراعة بعون الله ١٩ .

فرد الصغير وقد بلغ الطعم واستمرأ دوره الحقيقي والتمثيل كذلك ، دور النفس الكبيرة حين يسند إليها تمثيل الرجل العظيم ، فأشار بذراعه إشارة متعالية وهو يقول بصوت عال :

— وعن أرضكم أيضا .. لعنها الله ..

وكان « عم محمد الجندى » لا يزال واقفا يتسم ويهز رأسه موافقا . وعلامات سرور تسيل من عينيه الضعيفتين مع دموع تقليدية . بوجه ضامر مجمد شعجاع . وعندما كان الأب ينفجر في ابنه صلاح طاردا له : « اخرج من أرضنا يا خايب .. لعنة الله عليك » .. كان الشقيق الأكبر قد جر « عم محمد » من يده بعنف حتى دخل به حجرة القهوة . وقال له غاضبا :

— لماذا تتدخل فيما ليس لك فيه ؟. (وأخذ من فوق الصينية فنجالا وكسره على البلاط.) لقد غرك أنا نحتملك وأنتك ريبتنا (وأخذ فنجالا ثانيا وكسره) ماذا نفعل برجل مخرف مثلك ؟ لو حاسبناك على كل ما تقول لشنقناك .. هل يبلغ الأمر بك أن تشتم جمعا فيه النجومى الكبير . فيه أنى ؟! (وأخذ فنجالا ثالثا وكسره على البلاط) . ما لك لا ترد ؟. الآن أكلت لسانك ومنذ دقائق كان لسانك يأكلك . (فلما لم يرد أخذ الصينية بكل ما عليها ورمى بها على البلاط) ..

وعندئذ تحرك لسان « عم محمد » قائلا :

— الحق .. الحق هو المثل نفسه .. والله ما فيكم مثله ..

تنهد « طه النجومى » ونظر إلى الرجل وخرج .. قائل الحق الوحيد فى هذا البلد ، وعند وصوله إلى البهو الذى وقعت فيه هذه الحادثة كان قد خلا تماما من الناس . كان الأب قد قام داخلا إلى مخدعه وشهود الزور قد انصرفوا .. وكان القنديل الكبير المدلى من سلك يهتز مع نسمة مساء شجية .

٢

أوى إلى غرفته حتى هجع المسكن ثم خرج وسار من طريق ملفوف لا يراه فيه أحد . وكان القمر قد مال للمغيب وهو في الثلث الأول من الشهر وترك على المباني الطينية ظلمة غبشاء .

ونبح الكلب الواقف على الجدار الذى يفتح فيه باب الدار . نبح بترحاب . هذه دار « عم محمد الجندى » فدق صلاح الباب بسماعة حدادى صغيرة . فنهض الرجل وفتح . كان نائما وراء الباب فى دهليز مكشوف على حصير تحت سماء الصيف . على جسمه جلباب مفرد أحسن منه حرجا . لكنه أشعل مصباحا صغيرا ورحب بالسيد . فقال له النجومى الصغير :

— أليس فى مجيئى الآن ما يحمل على التعب يا عم محمد ؟
فهتف الرجل بصوت مشروخ من النوم مؤكدا فى قوة أعلى من مستوى سن الخامسة والستين الذى يعيش فيه :

— أبدا يا سى صلاح . باب دارك تفتحه بيديك فى أى وقت ..
— لا .. لا .. ليس هذا هو المهم يا عم محمد .. أقصد أنه لا بد من سبب قوى ..

— فى بلد النجومى الكبير .: والدك .. أسباب كثيرة للمشى فى الظلام ..
— ١١١ هـ .. لهذه الدرجة !؟

— ما لا يفعله الناس بالنهار يفعلونه بالليل .. المحروم يحلم يا بنى ..

— ١٠ —

— عم محمد ؟ .. آه .. (وتحسس قلبه أحس فيه بوجع) هل تكره أبى ؟
رد الرجل بدهاء :

— أبى أبى أبى ؟ .. وهل هذا سؤال ؟
فقال « صلاح » بتوسل وجد :

— أنت تعرف أبى أحبك .. لكن .. هل تكره أبى ؟

— أبوك بنى لنفسه مقبرة . (وسكت طويلا قبل أن يكمل) وكتب على
جدرانها نصف القرآن .. فلماذا هو خائف ؟
همهم الشاب .. وسكت .. وأسند ظهره إلى الحائط الطينى ومد رجليه
على الحصير ..

وأخذ « عم محمد » يمسح عينيه براحتى يديه ويكح خفيفا ثم قال بصوت
ناعس :

— أشرت عليه يوما أن ينزل وقيس المقبرة على طوله فشتمنى .. كان
جالسا وحده .. وكنت معه وحدى .. ولو كان معه أحد من شهود الزور
لخنقنى .. ومشيت من أمام غضبه كما هى عادتى عندما أقول الحق الذى
لا يعجب .. وبعد قليل سمعته ينادى بأعلى صوته : « يا جندى الكلب ..
يخرب بيت أهلك .. تعال هنا » .. فذهبت فسألنى كأنما ينبهنى لشيء
نسيته : « هل تعرف كم فدانا أملك يا سافل ؟ » .. فقلت له : « وهذا هو
سبب المشورة التى أشرت بها .. يجب أن نقيس المقابر كما نقيس القفاطين » ..
فرماني بعلبة الدخان والسيجارة التى كانت فى فمه .. ففررت من أمامه ..
وساد صمت .. عاد بعده الرجل العجوز يقول بحرج :

— شأى ؟ .. أو أبى ..

— قل لى : لماذا لا يطردك أبى ؟ .. لكن .. (وتذكر تولستوى) .. هذا

— ١١ —

لا يهم .. هل تستطيع أن تفسر إبقاء أبى عليك ؟
— لو كنت المداح الوحيد له لاحتفظ بى بنفس الطريقة .. أنا أعمل شيئا
لا يعمل به غيرى له ..

— جئت لأستشيرك .. أريد أن أترك هذا البلد ..
فتأوه الرجل فجأة .. آهة عالية ممدودة تحمل العجب والخوف . وأخيرا
توقع الشيء الصعب الذى يجب أن يحدث . ثم كف وأخذ يفرك عينيه ..
وساد صمت .. قال « صلاح » بعده :

— ما رأيك يا عم محمد ؟

فرد بأسى :

— أنت لا تزال صغير السن يا سى صلاح ..
— ربما كان هذا مفيدا لى يا عم محمد .. فأنا اليوم أحب أشياء ليست
موجودة فى هذه الأرض ، فإذا خرجت فسيكون خروجى باسم البحث عما
أحبه .. لكن .. عندما أحول إلى صورة من أخى فليس ممكنا أن أخرج بعد أن
ستصبح هواياته هواياتى .. وأنت تعرف من هو أخى الكبير ..

— فهمت .. قبل ما تتعود عينك على الظلام ..

— ممكن .. وأنا .. أنت تعرف .. لا صبر لى على الفلاحة .. إنها عمل له
قوانينه الشاذة .. إما أكل وإما ماأكل .. وإما ظالم وإما مظلوم .. وبغير هذا
لا يمكن أن تصلح .. وأنا أشعر أنها ليست مصدر رزق .. وعندما يموت أبى
يا عم محمد فإن أخى طه سيأكلنى وربما أكلنى وأنى حى ..

وساد صمت .. قطعه بعد قليل دردة عربات لقطار بضاعة يمر بعيدا بين
الحقول .. فذكر الشاب برحيله فقال :

— أتريد أن تعرف إلى أين أريد الـ ..

— ١٢ —

فقاطعه الرجل .. وضع كفه على فمه :
— لا .. إن قلت لى فربما منعتك .. لا تحنن قلبى .. لو كنت صغير السن
لرحلت معك .. لكن .. قل لى ثانيا .. إلى أين تريد ؟
— ألم تمنعنى ؟

— لا صبر لى يا سى صلاح .. هل تريد الحق ؟ .. لو أقمت بين أهل هذه
القرية شابا طيبا هكذا ما صدقوا أنك طيب وسيقولون إنك ابن أبليك
لا شك ، وستجد نفسك مضطرا إلى أعمال قاسية أعرف أنك لا ترضاها ،
وبعد ذلك ستصبح قاسيا بحكم العادة .. وناس قريتنا أعرفهم طيبا .. يشربون
قهوة أيبك ويصقون فى فنجاله .. هكذا علمهم هو .. والغريب أنهم تفاهموا
فى صمت على أن ينافقهم وينافقوه ، وأنت لم تدخل هذه المدرسة التى أنشأها
أبوك .. وتخرج منها أخوك .. (وضحك متذكرا نفسه) أين أذهب من
لسانى ؟ لعنه الله ..

بات الشاب يستمع إلى أصوات غريبة كأنه لم يسمعها من قبل .. فالتيران
فى بعض الحظائر لا تكف عن الخوار فى أصوات مهمومة كشكوى متعب .
ولم يدر سر عدم مبالاته ولا تعلق قلبه بأحد حوله . إلا برجل رآه الليلة يشعر
بالغربة مثله ويكسى على الشباب كوسيلة رحيل ..
وقبل أن ينتشر النور خرج الشاب من بيتهم بحقيبة صغيرة وفى جيبه
جنبيات غير قليلة . ولم يلق نظرة خلفه .. فقد كان مشغولا بما أمامه ..
مسحورا بشيء غامض . لا يعرف وصفه لكنه يملأ كيانه ويجذبه إليه .. كأنه
يرى مدينة ذات أبواب سحرية تنفتح مصاريعها عن شوارع وقباب من
البللور .. ينظر إليها فى ذهول .. كل هذا فى خياله ..

حتى إذا ما أفاق إلى أنه وصل « بور سعيد » ألقى على بحيرة المنزلة نظرة أخيرة .. واتجه توا إلى منزل يعرف طالبا فيه ، درس معه في مدينة المنصورة . وكان يحدثه عن البحر والهرب ، ومغامرات في الظلام بقوارب خفيفة تجرى على الماء مثل ريش الطيور ..

وكان مشروع الهرب يستلزم الإقامة في المدينة مدة امتدت إلى عشرة أيام ، كان ممكنا خلالها أن يعدل الشاب عن مشروعه . لكن كل يوم يمر كان يزيده إصرارا فقد أتاحت له الوحدة فحص مجتمعه هناك ، حيث التربة التي تموت فيها بذرة الصراحة لأول وهلة ، وكل شيء فيها تقتله أشعة الشمس .. لا ينبت إلا في الظلام . وليس « محمد الجندى » إلا شذوذا يؤكد القاعدة كما يقولون . وهو مع ذلك يشقى بصراحته ليس من بيت « النجومى » والده ولكن من نظرات الرثاء التي تلمسها عينه الضعيفة في عيون كل من حول مخدومه . وكأنما انتقل أنين الثيران وراءه إلى المدينة ، حيث يقيم الآن « صلاح النجومى » في فندق صغير . طوال الليل يسمع في القنال جثث البواخر منغما عميقا .. يسمعه بين اليقظة والنوم كصوت خرافى في عالم سلطانه الكابوس . وأخيرا وفي إحدى الليالي جاء صديقه وأخبره أن كل شيء قد أعد ، وأنه سيصل به إلى أحد مراكز النقل المتجهة إلى الشمال ، والتي تقف الآن في البحيرات المرة ..

وقبل أن يهبط السلم قال صديقه في دعابة وكأنه يودعه على نافذة القطار : « لنقم بالتجربة الأخيرة . قلد صوت البلبل كما هى عادتك فإنها الإشارة المتفق عليها » .

وعندئذ أخرج « صلاح » من حنجرتة تقليدا جيدا لصوت هذا الطائر .. لكنه لاحظ أن حنجرتة أصابها بعض الجفاف .. خوف أو حزن ..

وكلما تقدم بهما الزورق في الليل نحو المركب الواقف في عرض الماء ، أحس الشاب بثقل المسؤولية .. لكنه بين حين وحين كان يجد نفسه مضطرا ، لأن يغرد كالبلبل ليسمع البحار الذى ينتظره ، حتى إذا ما حاذوا الجدار الأسود ورأوا صلابة الفولاذ تحت الليل لم يلبثوا أن رأوا سلما من الحبال ينزل نحوهم وشابا خفيف الحركة خفيف الجسم يهبط مثل شبح بسرعة تلفت النظر . ودنا الزورق منه فأخذ يد الشاب الذى تعلق به ثم ما لبث أن صعد به إلى السطح ، وعاد يأخذ حقيقته بعد أن دفعه لينزوى بين أشياء مكدسة محزومة تفوح منها روائح لا تنتمى لأصل واحد .. وبعد أن عاد البحار النحيف بالحقيبة أخذ الشاب في يده ليهبط به سلما يؤدي إلى المخازن السفلية ، ومشى « صلاح » يترنح ، ولم يستطع أن يحجز دمه عندما سمع وهو لا يزال على السطح تقليدا ساذجا لصوت بلبل أرسله من الزورق صديقه كتحية وداع قبل أن يعود هو إلى الشاطئ ..

العالم السفلى في هذه السفينة كان قدرا خفيفا .. عالم مكون من الأصوات والروائح فحسب لم يرفيه وجها أبدا . يد فظة تقبض على كفه بطريقة توحى بأن الهمس ممنوع وتقود خطاه في دهاليز ضيقة تشع حرارة كأنها أفران . دهاليز من الفولاذ تحس العيون أنها ذات سطوة فريدة .. وعلى مقربة من مؤخرة السفينة أدخل إلى مخزن فيه أكداس لا تحصى .. لكن أهم رائحة فيه هي التوابل .. وعرق الشاب وأحس بالظما وانبعثت منه عطسة مفاجئة فضغط البحار على كتفه تلقائيا وغمغم بالضحك .. وسار يجتاز به بين البضائع حتى رأى مرقده الممهد من القش وقصاصات الورق تدرك العيون تحت نور المصباح الصغير الذى يحمله البحار أن ناسا قد افترشوه

من قبل ولا بد أنهم من الهاربين .
ولم يلبث البحار الذى لم يعط الشاب فرصة للكلام أن قال له بسرعة قبل
أن ينصرف : « إلزم السكون . سأتى لك بالطعام .. ثم آخذك بين وقت وآخر
لكى تقضى حاجتك .. (ثم غمغم غير مقتنع) نوما هنيئا .. »
ولم تلبث أشياء كثيرة أن أطبقت على هذا الشاب ..
وحدة غير محدودة .. وحر .. وعرق .. وظلام .. والأنكى من هذا كله
.. الخوف ..

إن خوفه لم يبلغ قط هذا المستوى .. فهو الآن لا يعلم شيئا عن شيء يقع
منه على بعد شبر واحد .. خوف لا يدع له فرصة أن يغادر مرقد القش وهو
ذلك الشاب الذى كان يغرد مثل البلبل فى البحيرات .. عبر المنزلة عندما كانت
تأخذه الهموم وهو فى الطريق إلى هنا ، وكذلك عبر البحيرات المرة ..
وسأل نفسه بإخلاص : « هل هو محق فيما أقدم عليه ؟ » ..

ولم يلبث شيطانه أن رماه بالتردد فعاد إليه إحساسه المألوف بأنه شاب لم
تعرف الظروف ولا الناس قيمته الحقيقية ، وأنه هو شخصا — بإقدامه على
هذا — يشارك فى البحث عن نفسه .. ولو أن له أحدا ممن يهتمون بالبحث مع
أبنائهم عن رغبتهم الحقيقية ما حدث هذا . والده مشغول بالمحافظة على التاج
القروى المصنوع من (الطين) .. وأخوه ولى العهد فى قرية الحفاة
والمطحونين . ذلك الذى أكد شخصيته عندما أحرق المستشفى المتنقل الذى
نصبتة الحكومة على ربوة قرية من قريته ، وكان مصنوعا من الحصى . ويعالج
من البلهارسيا والإنكلستوما ، ولم يستطع أحد أن يذكر اسم من أحرقه . وعاد
الفلاحون إلى الحقول ولم يتعطل العمل .. ولكنه عندما رقد فى مستشفى
البندر فى عملية بواسير كان الفلاحون يجلسون على أبواب المستشفى فوجا

بانتظار خروج فوج ويدعون له بالسلامة .. وربما قطعوا الطريق على طوله مشيا على الأقدام ..

وتذكر الشاب جب النبی يوسف ، وتذكر كل ليلة جميلة في عمره الغض .. وحتى الحب كان سعيدا فيه .. ويشعر أن قلبه يسع الدنيا . فلماذا عجزت الدنيا عن أن تسعه ؟!

ولم تلبث عيناه أن ألقتا الظلام فخلع بدلته ووضعها إلى جانبه وأخذ من الحقيبة بيجاما وارتداها . وأحس أن القش والورق يصنعان حرارة لا تطاق فقام يتحسس الأكداس المنتشرة حوله لعله يجد في إحداها ما يستطيع النوم عليه . ولما لم يعثر على مطلوبه أراد أن يعود إلى حيث كان . ولم يكن يدرى أن ضلال الطريق هنا أمر مألوف .. فعجز عن العودة إلى المكان الأول . وأخذ يدور فأوغل في السفينة . وارتفعت الحرارة ونضج العرق . وكانت أصوات مثل أصوات الثيران المتعبة في حظائر أبيه تأتي إليه في هذا الجب . كان يشعر أن قلبه شيء له أبهاء وقباب تتردد فيها أصوات السفن المليئة بالشحن . وأخيرا قرر أن ينام على إحدى الخزم فتسلق إحداها فارتطم رأسه بالسقف وانبعثت من عينه شرارة كأنها أضواء العنبر ، وشعر بحاجة إلى البكاء لكنه عاد فذكر صوت البلبل .. ذلك الذي يجيد تقليده ، وإنه منذ .. منذ متى ؟! كأنما مر على ذلك قرن .. منذ قرن من الزمن كان يعبر البحيرة مع صديقه البورسعيدى . لماذا لم ينصحه ؟! إن شعوره بالغربة بين أهله هو الذى حمله على هذا ومع ذلك فإنه سيذهب إلى بلاد مضيئة ، سيذهب إلى أوروبا . وهناك .. ماذا ينتظره ؟! . هناك تناح للمواهب أن تفتح ، وعندما يعود سيحقق أحلامه كلها .. لكن .. ما هذه الروائح الفظيعة ؟ الجو مكتوم . وأحس بحاجة مستمرة إلى العطاس والسعال فقد ساقه حظه إلى شحنة من التوابل . وها هو ذا يكاد يختنق

.. إنه في عمله هذا كمن يسابق ظله .. سيظل يجري حتى يسقط . ما فائدة البحث عن النفس إذا كنا لا نجد النفس إلا في تجربة الموت .. كان يوسف في جب ولكنه كان رطبا . أما هنا فجحيم . وشيء ثقيل مثل « الهون » من النحاس ينحط على نافوخه . وجفاف ريق . ووسوس لنفسه بصوت ظن أذنه تسمعه : لماذا لم يعد هذا البحار الملعون بإناء من الماء ..

كان البحار يشرب هناك على سطح السفينة ويأكل شواء هو وبعض البحارة ، ويتنسمون هواء الليل ، ويلقون بأنظارهم إلى قافلة البواخر الواقعة أمامهم بالقنال بانتظار العبور وكل قد أشعلت أنوارها ورفعت علمها .. ولم يدر الشاب أن البحار قد نسي المتعبين عندما سكر ورقص وغنى ، حتى إذا ما بدت خيوط النهار استفاق « صلاح » ورأى بصيصا من النور كشف له أرجاء المكان . وعندئذ أخذ يبحث عن مرقده . فرآه على بعد لا يزيد عن خمسة أمتار ، لكن حزمة كبيرة كانت تقف كالجبل بينهما فجعلته يدور في متاهة .

وحمل إليه البحار ضحا اليوم شيئا من الطعام ودخل . كان عدم المبالاة في عينيه . وبعد أن وضع الطعام أشار إليه بأن يتبعه ليذهب إلى دورة المياه .. وأحس بالذل . ولو لم يكن حديث السن لسافر بالطريق الرسمي . لكنه سار يترنخ . بدا متعبا منهكا . ثم .. عاد به البحار إلى مخبئه وتركه وانصرف وجلس الشاب يلوك الطعام ولم يتصور — لفرط ما هو فيه من وحشة — أن جدارا من الحديد أقل من سمك أى حائط هو الذى يفصل بينه وبين معالم وطنه ، وزاد من عمق إحساسه أن البحار كان يتكلم معه بالإنجليزية ..

ولم يكن له من عمل إلا أن يستلقى من جديد في ظل شحنة من الشحن وأن يسمع صدى النداءات ونفير البواخر . ولما اشتدت حرارة الشمس (للزمن بقية)

وسخن ماء البحيرات أحس الشاب أنه في أتون . وبدأ الزمن لا حدود له . فقد كانت الساعة تمشى ببطء يفتت العصب .

وعرف الشاب معنى « الحرية » وجعل يكتب حروفها بهزات رأسه المثقل بالحزن والصداع والأفكار وهو يهمس باسمها . واستعاد ذكريات معارك عرفها في سبيلها في التاريخ وغير التاريخ . وتذكر وهو في هذه الحالة من الإنهاك أن المعارك ليس من الضروري أن تكون بالمعنى الواسع فقد رأى « محمد الجندى » يخوض معركة في سبيلها مع أخيه « طه » ذات مساء ، وكان « صلاح » لا يزال تلميذا بالمدرسة الابتدائية .

كان يومئذ قد وقع احتكاك بينه وبين ناظر الزراعة ، إذ طلب منه « محمد الجندى » حملا من حطب القطن فسوف وسوف حتى نفذ الحطب . كان الناظر واقفا على مقربة من باب حجرة القهوة وكان « الجندى » يكلمه بصوت مرتفع ويدها مشتبكتان خلف ظهره وهو منحني إلى الأمام وفي لهجته إتهام واحتقار :

— حطب يا سيدى ؟ الله الغنى .. أنا حطب وطلبت حطب من حطب .
أى والله . قلت لك الحق ورزقى على الله ..
فالتفت إليه الناظر مأخوذا :

— أنا أعرف لسانك يا جندى ولكنى لا أفهم كلامك .

فرد عليه الجندى وهو على نفس الصورة وبصوت أعلى :

— أنا حطب يعنى كما ترى عجوز ، وطلبت حطب .. مفهوم .. من حطب يعنى من حضرتك .. وإنك تعرف السبب فى أنك ستكون وقود جهنم يوم القيامة ..

وكان ينطق جهنم بحجم عليها ضمة فتبدو فظيعة جدا فى أذن السامع ، وكان

لهيها يتوهج ..

وهنا دخل « طه » فهرع إليه الناظر ولما أراد أن يعرف ما جرى أعاد عليه
« الجندي » نص ما قال . فسأله « طه » في تأنيب شديد :

— ألا تخاف من أحد يا طويل اللسان ؟

فهز رأسه ، وجز « طه » على أسنانه ثم قال :

— أنت لا تعرف الحياء ولا الخوف ..

فرد الرجل بعدم اهتمام :

— الخوف ؟ لا ..

— وتقول : لا ؟ لماذا ؟

فمد الرجل كفيه معاً إلى الأمام كتلميذ سيضرب عليهما ، وقال في هدوء

من يحسب حسبة تافهة :

— هل ترى في يدي شيئا يطمع فيه أحد أو شيئا أخاف عليه من أحد ..

وإذا كان الحصول على الخطب يحتاج إلى حيلة كأنه قطن فالبحث عن القطن
أحسن . لكنني بعت الجمل بما حمل ..

وانصرف .. ووقف الرجلان ينظر كل إلى الآخر ، أما الغلام صلاح

النجومى فقد حمل إلى « عم محمد الجندي » طلبه من مخازن حطبهم في العزبة
بأمر من أبيه .

كل شيء يمر بنا يشارك في بنائنا .. وكأن هذه الحوادث صنعت قلب

صلاح النجومى ..

وهو إذا فكر اليوم في (الحرية) فإنه لن ينسى الليالي المظلمة في قاع

السفينة . ليالى كان يكتب اسمها على كفه اليسرى بسبابتها في الظلام مائة مرة

.. هناك حيث أهمل ليلة أخرى وحيث كان البحار نفسه يشرب ويأكل ويرقص ويغنى فى الهواء الطلق هو وبعض زملائه . وليس من دليل على الحياة حول الشاب فى القاع إلا حركات لعلها الفيران تجول فى المخازن .

ولم يدر صلاح لماذا تحسس جيبه فى الظلام .. كانت بدلتة إلى جواره فلم يجد فيها نقوده .. وعند ذلك كاد يجن ، وأحس أنه وقع أسيرا فى يد عصابة من اللصوص ، لكنه لم يلبث أن شعر أنه لا يزال على أرض وطنه ولعله من حسن حظـه أن حدث له هذا قبل أن تتحرك السفينة . ثم هدأ قليلا ورجح أن نقوده ربما سقطت منه .. وعليه إذن أن ينتظر النهار .. لكن عاد ففكر : « إن هذا البحار يلقي فى نفسه الخوف باستمرار وهو يعلم أن نفسه الآن مزرعة خصبة للخوف . كما يعلم صلاح أنه من المحال أن يقوم فرد واحد بمثل هذا العمل . وقد يكون مستبعدا أن يكون القبطان جاھلا لما حدث » ..

ولما انتشر النور بحث عن نقوده فلم يجدها ، وغاب البحار عن ميعاد اليوم السابق فأدرك الشاب أن هذه الضيافة تسوء يوما بعد يوم . لكنه انتظر . وما لبث أن سمع وقع أقدامه . دخل من باب العنبر يغنى ويصفر . فى اللحظة التى كان الضيق فيها قد بلغ منتهاه فى قلب الشاب .

وحياة بكلمة « هاللو » بمودة متكلفة ، ووضع شيئا من طعام وأمسك بيد الشاب يقوده نحو دورة المياه كالمعتاد .

وفى أثناء الرجوع إلى العنبر وقف الشاب الملىء الطويل الصغير السن أمام هذا البحار المدرب وقفة من يدافع عن بقاءه . وسأله عن نقوده .. فمط الآخر فمه كله فى حركة بذیئة وأشار إليه ألا يتكلم حتى لا يسمعه أحد .. وأخذ يدفعه نحو العنبر دفعا . فامتنع الشاب وتثبت بالوقوف ونشبت بينهما معركة قصيرة ما لبث الشاب أن أدرك أنه من الخير له أن ينهيها حتى يتدبر الأمر ، ثم

جلس في مخبئه مكتئبا حزينا يحمل رأسه على راحتيه . وتمنى أن لو كان معه ما يشعل به النار في هذه البضائع ليحرق كل شيء في السفينة . وذكر وجه أبيه وشاربه الطويل الفضى اللون . وأبهة التاج القروى .. والكلمة المسموعة .. ثم .. موقفه الآن . موقفه كلما فكر فيه زاد اكتئابا واستشعارا للخطر . فماذا لو كان هذا البحار قد استعان ببعض زملائه ونزلوا إليه وألقوا به أذى ثم رموا به في الماء . إنه الوجه الوحيد الذى رآه يحمل طابع اللصوصية . وهو يعلم أن هذه السفينة يونانية لكن وجه هذا البحار يدل على أنه من سكان المستعمرات .

وأخذ النهار يتقدم . ومرت فترة الغداء ولم يحضر إليه أحد . وفقد الشهية .. وكلما سمع جئير أحد المراكب غاص قلبه في صدره المفعم . إنه يود ألا تسير به السفينة . يريد أن ينزل يريد العودة . وليس عارا أن يفشل مشروع مهما تكلف من جهد أو نفقة . لأنه في سبيل أغلى شيء ، ولم يدر الشاب كيف خاف من دخول الليل ، فعندما أشارت الساعة إلى الخامسة مساء كان في كامل ملابسه . ولم تكن ذقنه قد نمت كثيرا . وسار في الطريق المفتوح .. في العنبر الخالى . وكانت أصوات البحارة تتناهى إليه بين حين وحين .. لغات مختلفة . وغمغمات لا يفهمها . لكنه ما لبث أن وصل إلى سلم في وسط العنبر .. عرف أنه يؤدى إلى السطح فأخذ يصعد لا متلصضا بل مصمما كأنه يعرف هدفه . وقبل أن يحاذى رأسه أرض السطح سمع صوتا يتكلم الإنجليزية . وكان الصوت مليئا مترينا يدل على أن صاحبه يتمتع بهدوء .. وربما وقار .. ولم يلبث أن سمع كلمة « كابتن » تتكرر .. وأوامر ومشاورات . فارتفع حتى رأى أقدامهم ، أحذيتهم من النظيف والقذر . ورأى حذاء يلمع وحلة بيضاء وعددا من البحارة . وحديث يدل على أن بين

الموجودين مسئولاً .

وانطلق الشاب كالطائر حين يفتح باباً قفصه نحو أعلى .
وسمع الواقفون وقع أقدامه فانتبهوا في انزعاج وتعجب . وعرف الشاب
وجه « القبطان » . لا يمكن أن يتوه . وجه إغريقى كأنه وجه تمثال في معبد
يونانى قديم ، ونظارة في شفافية فقايع الصابون ورقتها ، وكل شيء يلبسه في
مثل هذه النظافة .. والتفت القبطان منتبها إلى كلمة ألقى بها الشاب بسرعة :
— سيدى .. إننى فى حمايتك ..

وضع الرجل يده على ذقنه وقاس بنظرة طول الشاب الوسيم الواقف أمامه
عملاقا والذى ألقى عليه بالإنجليزية هذه العبارات والتف البحارة حوله بحركة
سريعة من باب الاحتياط ، ولكن القبطان صاحب الشعر الفضى واليد
السمينة أشار إلى الشاب فتقدم منه ، ووضع يده على كتفه فأحس أنه يرتعد
.. طمأنه : « لا تخف .. لكن من أين جئت ؟ » ..
— أنا أعلم أنك لا تعلم ، ولذلك أطلب حمايتك ..

وكان الشاب قد تعلم فى قريته من أبيه وأخيه أنهم يخاطبون فى الريف من
باب الاحتياط رئيس العصابة على أنه رجل شريف لا يعلم شيئا عما جرى وأن
توجيه المشكلة إليه من باب الاستجداء بأشرف رجل .. لأنه من غير المرجح
أن القبطان بمعزل عما يجرى .

وقص عليه مجمل الواقعة . فلما سأله عما إذا كان يستطيع معرفة وجه
البحار الذى حكى عنه . قال بهدوء يوحى بالصدق :
— كنت فى حالة أعجز فيها حتى عن معرفة وجه أبى ...
— وكيف عرفتنى إذن ؟

— من صوتك أولا .. فهو صوت رئيس ..

— ٢٣ —

فضحك الرجل في سعادة طفل . وأمر له بشراب بارد وسلك معه مسلك
الآباء .. وأخيرا سأله وهو يقهقه :

— تريد الآن أن تعود إلى الشاطئ وعدلت إذن عن المغامرة أيها الشجاع ؟

فأوماً الشاب وفي عينيه دموع .. قال القبطان :

— إذن فلتعد ..

فتحرك قارب نحو الشاطئ تحت عين القبطان ..

كان عليه بعد هذه الحوادث أن يواجه أفسى رجلين عرفهما ولو أنهما أبوه وأخوه ..

وعن طريق بحيرة المنزلة ثانيا عاد إلى القرية .. وكان في المركب البخارى الذى يحمله رجال ونساء من كل سن . يختلسون النظر إليه ويدارون إعجابا . فأخذ يوازن بين ما كان وما هو الآن .

لم يجد على وجوه الناس فى القرية ذلك الأثر الذى كان فى وهمه . ظن أن العيون لغيابه لن تكف عن البكاء . فلما قابلته أمه أول الناس بعتاب وانصراف خاب فآله ، خصوصا عندما أفهمته أن الذى ارتكبه عار بالنسبة لهم جميعا . فى حديثها مبالغة مقصودة وإن كانت تحس بالفرق بين الأخوين اللذين أنجبتهما هى . وتأسى للمستقبل المفلس الذى ينتظر ابنها « صلاح » — على ما تظن — إذا ما ورث نصيبه من الأرض . فلم تكن فيه طبيعة الفلاح الذى يرى أن الانتظار الطويل شئ طبيعى حتى تحول الأرض أجنة البلور إلى ثمرات ربما لا تجنى إلا بعد حرب مع الآفات بل فيه طبيعة الفنان الذى يؤدى دوره على المسرح وهو يتحرك ويريد أن يرى أثره بسرعة . ويرى أن الحركة أشهر دلائل الحياة . ويعجب لمجموعة من الناس لا يكادون يفارقون مجلس أبيه العمدة .. كالتماثيل يهزون رعوسهم موافقين طول النهار دون أن تتعب أعضاؤهم ، حتى إذا ما عادوا إلى زوجاتهم انقلبوا ناقدين ناقلين .

وعلى هذه المجموعة دخل « صلاح » بعد عودته من الحرب ، وتلقفته عينا

أبيه بنظرة نارية .. وها هي ذى .. هذه النظرة بعينها تبعث من صورته الكبيرة التي علقها في المكتبة ، وتبعث في قلب الناظر إليها من الخنوع شيئا مبهم السبب .. فيها روحانية شريرة — إن صح هذا التعبير — أشبه ما تكون بعيون السحرة . وعندما تلقفته نظرة أبيه دخل في نطاقها مستسلما . كان يشعر في هذه اللحظة أن هذه القوة ملكه لأنها قوة أبيه وإن كان يكرهها ويخافها . اعتزاز مخلوط بالتمنر . دفع بخطوات الابن إلى الأمام إلى حيث سلم على أبيه وقبل يده ، وكان الأب يزجر ويقول في لهجة سريعة مريرة : « حج مبرور .. حج مبرور .. اقعد يا حاج إشرّب القهوة » .

وفي اللحظة التي كان الابن يتخذ فيها مجلسه على مقربة من أبيه ارتفعت عقيرة الأب مناديا بأعلى صوته وبنغمة لها معناها :

— « يا جندي .. سكر زيادة للحاج .. بسرعة .. » .

وأخرج علبة الدخان وأخذ يتألق في لف سيجارة والارتياح الغامض باد على يديه ثم ملامحه بعد ذلك . فقد عاد ابنه على كل حال ..

وكان الجالسون يحملقون في صمت نحو الشاب ويتنحنحون بين وهلة وأخرى . لا يجروا أحد أن يقول شيئا خيفة أن يكون غير موافق رأى العمدة الذي لم يجهر به بعد . ولم يلبث أن أهل محمد الجندي يحمل صينية صغيرة عليها فنجال وحيد .

ووقف يتصفح الوجوه ليرى أين الحاج بين الحاضرين .. وما لبث أن لمح الابن فxfق قلبه وأدرك أنه هو المقصود بما حدث .

ونظر العمدة في خبث وعلى شفته ابتسامة لا تدرك ليرى لمن سيقدم الفنجال . ولم يتكلم أحد فما استغرب الجندي ووقف وسط البهو ينظر بعينه المتتوفتين في كل اتجاه بين الصمت المعلق حتى إذا ما وقعت عيناه على

« صلاح » قال بإهمال من لا يبالي : « حمد الله على السلامة يا سى صلاح » .
ثم .. لم يتقدم إليه ولم يقدم له القهوة بل دار على عقبه عائداً إلى حيث
كان . فأخذت الدهشة الحاضرين وناداه العمدة من جديد فعاد إليه متكلفاً
غاية الطاعة ، فقال له العمدة بخنق مفتعل :

— لماذا عدت بالقهوة . هل أنت مجنون ؟

— لا يا سيدى .. ولكنك طلبت قهوة للحاج .. وليس بينكم حاج واحد
ولا ضيف جديد ..

وعندئذ أشار إليه العمدة أن يتقدم نحوه وأن يتقدم .. حتى إذا ما صار قريباً
منه جدا وصار خده في متناول كفه وعينه محمقة فيه مد العمدة يده .. وأخذ
فنجال القهوة .. فضحك الحاضرون وقهقه العمدة محاذراً أن تراق القهوة على
قطفاته والجندى واقف يغلى وصلاح يكاد ييكنى .

لكنه رأى أن واحدة بواحدة وأن أصغر احتجاج (لدى هذا البلاط
البدائي) وثيقة حرية لا مثال لها ، وقد احتج فعلاً بما عمل .. بالهرب : « ألم
يحرق أخى المستشفى الحكومى ويسوق الفلاحين إلى الحقول ؟ وقد قال لهم :
إن البول الدموى علامة للصحة فهو يدل على كثرة الدم ؟! وعندما رقد
يستأصل بواسيره هرعوا إليه أفواجا . (وتأوه صلاح) . وبلغ من الحب
الطاغى له أن ادعى كل رجل زاره أن البواسير كثيرة الانتشار كأنها خلقة في
كل رجل .. لكن ما دام السيد « طه » يرى أن استئصالها ضرورة فلنستغن
عنها جميعاً » ..

ولم يلبث أن دخل « طه » يتبختر . كان ذا وجه أسمر ومزاج صفراوى
وزاويتا عينيه من ناحية الأنف ذواتا بياض محمر . وجه مدمن يحمل علامات
الصحة وإن بدا عليه الإرهاق . بشرته مطابقة في اللون لبشرة أبية أما بشرة

صلاح فمطابقة لبشرة أمه .

. ولما كاد « طه » أن يعبر دون أن يلمح حضور أخيه هتف به أبوه : « لماذا لم تسلم على الحاج ؟ » فتوقف الأخ الأكبر ونظر إلى صلاح ومضى . دخل إلى إحدى الحجرات الخاصة في الدوار . وأشار العمدة إلى ابنه أن يلحق بأخيه فنهض مهزوما . يجر وراءه ذكريات مخزن البضاعة في السفينة والليالي المظلمة وعسف البحار . وكأئنا كان هذا (مسكنا) جعل نفسه مستعدة لأن تسمع من أخيه أى شيء .

وصل إلى باب الحجرة والجندى داخل بكوب من الشاي . فانتظر « صلاح » حتى يخرج ثم دخل . وجلس الأخ الأصغر ساكتا ينظر إلى شقيقه وكأنه يهيب به أن يقول شيئا . أخذ « طه » يرشف الشاي بصوت مرتفع لم يخل من المبالغة والإثارة وبين كل رشفة ورشفة يرمى شقيقه بنظرة شماتة . وجلس صلاح يفرك كفيه ووجهه محترق : « فى المركب وجدت قبطانا احتميت به .. وهنا .. لا قبطان .. » استسلم .. هيا نفسه لأن يسمع أى شيء .. لم يكن قد أفاق مما حدث كأنه لا يزال حتى الآن فى قاع السفينة . وأحس .. كأنما (شخصية) كل فرد قد نثرت جزافا بحكم الفطرة فوق كل جزء منها أسيرا فى يد فرد آخر بتحكم الرعاية أو الحاجة أو الرئاسة . ولكى يستكمل الفرد (شخصيته) عليه أن يسترد أجزاءها المنشورة .. وفى سبيل هذه التجربة تلقى عذابا وربما فقدنا الأجزاء التى نملكها فى سبيل استرداد ما فى يد غيرنا منها ..

ولم ير « صلاح » فرقا كبيرا بين شقيقه وبين البحار . كل منهما ينازله ليأخذ منه شيئا .. وهذا شقيقه يريد منه أن يكون صورة منه . وكذلك يريد الأب . مع أن صلاح عاش فى المنصورة عيشة فذة طويلة سنوات تعليمه . كان

يبنى عالما من البللور . مما يقرأ ويكتب ويحب . ويسافر إلى القاهرة في ليالى الجمع ليرى ما لا يرى في المدن الصغيرة .. وبنات مدارس بشعور صفراء ينشدن أشعارهن في الخلوات .. له .. أشعار تنطق بالحب والأمل بطريقة تناغى الطير .. كلامها في ذاته ليس مفهوما . لكن حين تقرأه صاحبتة وتدارى عيوبه بموسيقى ضحكة يصبح كل شيء (موزونا) . ويخيل إليهما أنه لا شيء في الدنيا أعظم من هذا ..

أما هذه الرشفات وهذه النظرات التى تنبعث من أخيه فشئ مخيف .. روائح عالم جديد لا علاقة لصلاح به . يريد الأخ الآخر أن يجره إليه من رجله . لذلك هو خائف صامت . عالم ليس فيه شيء يتنفس بطريقة النبات .. هناك في الحقول حيث يتم تنفس النبات بلا صوت تتم كل الأعمال التى يريدها « طه النجومى » . فإذا ارتفع غناء مجموعة من الناس في حقل من الحقول كان معنى ذلك أنه غائب .

أما عالمه عن الحب فهو عالم (الرغبة) فحسب . وعالمه عن الناس فهو (عالم الأسماك) . وكان أول تلميذ في المنطقة أعطى كل كتبه لبائع خيزران وأخذ نظير الكتب خيزرانة مشى يضرب بها الهواء يوم قرر مقاطعة المدارس . ونقل الخبر إلى أبيه فقهقه وقال : « إنه لم يعمل أكثر من أنه استعجل . فهذا ما كنت أريده » .

وهذه رشفاته تفتت أعصاب « صلاح » .. ولما انتهى وضع الكوب وممصص بشفتيه :

— قل لى يا بيه ؟ ماذا قررت بعد أن رجعت من (البعثة) ؟ !

فرد بانكسار ليس من طبعه :

— هو ما قرره أبى .. و .. أنت .

فانتفش كأنه ديك وأشار بيده السمراء البضة :

— اسمع يا بنى .. دعك من فلسفة محمد الجندى فهو رجل معتوه يحميه ضعفه ، وتربيته لنا . ودعك من كل ما تسمع .. اسمعنى أنا لتكسب .. كل ما أسمع لا أصدقه لأن الناس هنا منافقون . ولذلك فأنا أتصرف على أساس تفكيرى الشخصى .. الفلاحة يا بنى يعنى الفلاحة .. الأرض لا تنبت حبة الفول إلا إذا شريحتها .. حبة الفول التى لا يستطيع كسرها بأسنانه إلا الحمار . الأرض قاسية .. وبطنها قاس ، وظهرها قاس : يعنى العمل فيها قاس .. فإذا كنت تريد أن تكون فلاحا فلتكن أخلاقك مثل الأرض .. فاهم يا أفندى ؟ انظر إلى الأرض بعد حصد القمح والبرسيم وبشاعة وجهها من الشقوق ، وبطنها لا يرقد فيه إلا الموقى .. ولولا الماء عليها لكانت وحشا .. انظر إلى الجبال ثم أنت تعرف عدد القتلى الذين سقطوا من أجل الماء .. فإما أن تكون وحشا وإما أن تأكلك الأرض .. وعلى كل حال فكر .. هل تريد أن تكون فلاحا بعد ما سمعت ؟!

فرك الشاب يديه وجعل ينظر إلى بياضهما . بينما عيناه تأخذان من جانب لون بشرة أخيه . ولم يكن يشغل فكره إلا طريقة معاملته للناس .. لكنه فى هذه المرحلة لم يكن يحس بأكثر من أنه ظلم وأن عليه أن يفتش عن مكان يجد فيه شخصيته ومستقبله .. ثم .. وهو المهمل . المصباح الذى سيحمله ويمشى به .. ليرى مواقع أقدامه . ليس لنفسه فقط ولكن لناس سيمشون معه قليل أو كثير .. ولم يلبث الشاب أن قال لأخيه بلغة المهزوم وكأنه يخاطب شخصا بعيدا :

— كان جنود نابليون بعد أن ..

صرخ « طه » فى ملل :

— أووه .. مالنا ومال نابليون والزفت ؟! أنا أكلمك عن وحشية الأرض فتكلمنى أنت عن نابليون باشا ؟!

— ٣٠ —

رجاه بعينه وإشارة رقيقة من يده :

— الوحشية تذكر بالوحشية .. أرجوك يا أخى .. كان هو وجنوده أثناء تقهقرهم عن روسيا على الجليد يذبحون الخيل ليشربوا دمائها الدافئة حتى لا يتجمدوا من البرودة .. مع أن هذه الخيل كانت سلاحا ووسيلة عودة .. لكن .. الوحشية تدعو إلى الوحشية .. أنا معك ..

فابتسم فى انتصار :

— عال .. فهمت الآن أنك ستكون فلاحا .. عال .. أرضنا واسعة وتحتاج إلى كثير من الرجال والعيال ..

* * *

وسهر صلاح يحدث عم محمد الجندى فى داره بعد ذلك بأيام عما جرى فى قاع السفينة ، وأنه لو لم يصدم منذ الخطوة الأولى ما عاد إلى هنا ..

وكان الرجل صامتا لا يتكلم .. وأخيرا قال للشاب :

— لم يستجب الله دعائى لك .. ولو استجاب ما عدت إلى هنا .

— هل تكره أن تكون معى يا عم محمد ؟

— أنا الذى أكره أن تكون هنا .. سمعت شقيقك وهو يسقيك مبادئه ..

— هل سمعت ؟

— مصادفة .. كان يقول لك إن الأرض قاسية لأنها تنبت الفول ..

وصدقت .. هل هى قاسية لأنها تحول حبوبا مثل الحجارة إلى عيdan

خضراء ؟

— هذا لا يهم .. فلكل طبعه .. لكن الذى أعجب له هو إحساسى أننى

غير أبى وأخى وأنتى سأحارب دنيا بأكملها .. وحتى يثون الأوان الذى يفهم

فيه الفلاحون أنى أحبهم أكثر من الأرض يكون كل شىء بينى وبينهم فسد ..

هذا مؤكد ..

واستقر رأى الأب وابنه الكبير على أن يتولى « صلاح » عملا بكرة ..
 عملا يتيح لهم أن يعرفوا مدى مجهوده وقدرته على تشغيل الأيدي البشرية .
 فأُسند إليه إدارة المزرعة الشمالية التى تحدها أشجار الجزورينا من الشرق
 والغرب . أما من ناحية الشمال فقد استقر رأى الأسرة على شق مصرف كبير
 شديد العمق غير طويل المدى . ومهمته رسم حد أساسى ثابت للمزرعة
 وامتصاص الملوحة التى تنتشر عادة فى هذه البقعة كلما اتجهنا نحو الشمال .
 ووقف لنظارة هذا العمل فى الأيام الثلاثة الأولى الابن الكبير حتى أمكن
 معرفة مستوى الإنتاج ، ولم يكن « طه » محتاجا إلى جهد كبير لكى يأخذ من
 القوى البشرية أقوى طاقة تبلغ مع غروب الشمس حد الخور ، أو شبه الموت .
 وبعد ذلك وكل إلى الابن الأصغر نظارة العمل . وكانوا كلهم فلاحين من
 مزارع أبيه أو من القرى المجاورة .

ورآهم يحفرون . الرجال يغنون وفى عيونهم حزن وعلى أجسامهم خرق
 واليد التى تحرك « الكريك » أو الفأس فى جفاف الخشب الذى تمسكه وهم
 مع ذلك يغنون .. فلماذا يغنون ؟! وكذلك فعل النساء . وبدأت وحشية
 الأرض — كما قال أخوه — والعذاب الذى يقاسيه الإنسان فى ترويضها .
 كان على رأسه مظلة فأقلعها ليرى تحت أى جو يعملون .. وأحس ..
 وعرف .. وكانت روائح الخبز المخلوط بالحلبة تفوح من المكان . لكنه كان
 مشغولا بأمر واحد هو : كيف أن هؤلاء الناس يستطيعون الغناء وإذا
 استطاعوه فكيف يستمرثونه ؟ .. ثم .. تساءل عن شيء آخر رآه أكثر غرابة .
 هو هذه الحفاوة التى تبدو وكأنها حقيقية إذا ما رأوا أخاه الأكبر . كيف
 تستطيع النفوس كمجموعة أن تحمل كل هذا الباطل ؟!

كان يفكر في هذا صامتا والشمس تصهر رأسه . وأحس بالظمأ فمال على القلة الكبيرة الحمراء وشرب . إنه يريد أن يعرف . وهم أن يمسك الفأس معهم لكنه خشى أن ينهار العمل . وحاول أن يتصور ما يمكنه ضمير كل منهم . ف شعر برثاء للذين لا يفكرون فيما هم فيه لأن « شخصية » كل منهم نهشتها طريقة معيشته .. الريش يمنح الطيور شخصية .. وهؤلاء أناس لا ريش لهم يستطيعون أن يطيروا به ولا حتى يمشون به على الأرض .. بل هم محتاجون إلى الرغبة .

أما الذين يفكرون فيما هم فيه فعذابهم مضاعف . تفكير الأسير .. وقد أحس « صلاح » بالأسر قبلا وعرف معنى العجز وظل ليلتين يحلم بالحرية ويكتب في الظلام المطبق اسمها بسبائته على كفه اليسرى يناجيها بالكتابة . وحز في قلبه أنه رأى سماء وطنه وشمسها وخضرة أرضها ثم أحس أنه أسير على ظهر السفينة أيام هذا الحادث ، ونظر إليهم : « هكذا هم .. أقصاف أرضية وحبال من الليف .. وسجن بدائي » .

وأحس حرارة الشمس .. ثم صداعا .. فصاح بالفلاحين بأعلى صوته : « ألا تريدون فترة من الراحة ؟ » .

لم يكن هذا مألوفا فتجمد كل في مكانه كأنما سحرت الصورة ، لم ينظروا إليه على أنه نصف نبي أو شاب رحيم بل على أنه سليل آل النجومى لكنه لم يكتمل بعد .. لم تنبت له أظافر .. جرو ذئب ممكن أن يلعب به .. لا بأس .. وعندئذ جلس كل في مكانه على الأرض التى تحفر .. لعب الصغار وغنت البنات ودخن الرجال . وهم ينظرون إلى هذه الرغبة التى أبدأها الشاب نظرة سارق المحاصيل من أرضهم .. وعندما هتف بهم .. : « هيا .. عودوا إلى العمل » قاموا متكاسلين .. وفى الغداء أخذوا فترة أطول من المعتاد .. ولم

ياكل « صلاح » من طعامه أمامهم .. كأنما خشى أن يחדش البؤس ..
وساعتئذ شعر أن الدفاع عن هؤلاء خير ما يتقرب به إلى الله .

وانتبه فجأة إلى أن الوقت يمر .. وأخيرا عادوا إلى العمل مثل النمل المجهد .
ومرت على ذلك أيام .. بدا المستوى بعدها منحطا .. ومر أخوه الكبير
مباغتة ليرى الأمور فقرح في خبث .. وانقطع الغناء وأخذ العمل يجري
كحيوان مذعور بمئات من الأيدي والأرجل وأدوات الحفر والمقاطف . ونظر
« طه » إلى أخيه وهمس . « هل رأيت ١؟ . هكذا يعملون » ..

لكن ذلك لم يشعل الحق في قلبه .

وفي المساء في حجرة القهوة همس له « محمد الجندى » :

— يقولون إنك لم تنجح ..

ضحك صلاح :

— في الشهادة ١؟

— في تشغيل الأنفار ..

— أخذت منهم آخر ما عندهم ..

— صحيح .. لكن .. لكنهم كل يوم يأخذون منهم أكثر من « آخر ما

عندهم » .. بقر يضرب ليحلب .. ستتعب . لماذا رجعت من بور سعيد ١؟

— أنت تخوفنى يا عم محمد .. بعد قليل سيفهمنى الناس .. أنا أبحث عن

راحتهم ..

— العمدة ينادى عليك .. إلبس ملابس العمدة وقف أمامهم ليمشى العمل

كما يريد أخوك . (ومصمص بشفتيه) لا إله إلا الله .. حتى بنى آدم ..

محتاجون إلى « خيال مقاة » ١؟ .

(للزمن بقية)

ولم يستطع « صلاح » أن يكون في قسوة الأرض . وكل يوم يمر كان يأس
أبيه يزداد منه . أما الفلاحون فقد كان هو موضوع جدهم في الحقول
والسهرات .. بعضهم رآه ضعيفا وبعضهم أحبه .. وبعضهم كان ينتظر
له مستقبلا مثل مستقبل أخيه لكن الوقت لم يحن بعد . وعندما كان يفكر
في حقيقة شقيقه كلما مر الزمن — على إقامته هو في الريف — كان يراه
متكاملا في ذاته بصرف النظر عن النوع الإنساني الذي ينتمي إليه . ريفي
مطلق لنفسه العنان . ذو شخصية (مؤكدة) .. والفرق بينه وبين
« صلاح » أن « طه » لقي المادة التي (يشغل بها) وهي الأرض وما حولها
من تقاليد . أما « صلاح » فلم يجد بعد (مادته) فهو وإن اشتغل بالفلاحة
لمدة سنتين لا يزال شابا لا يجد عملا في حقيقة الأمر حتى الآن في حين أن
« طه » قوة موزعة بقدرة وحكمة . وإذا تطلعت إرادته إلى شيء ما بحث فورا
عن أسباب تحقيق ما يريد . لا فرق عنده بين جريمة قتل أو رمي البذور في
أرض أو امرأة . يلقي بكل ثقله فيما يشغل نفسه به حتى ولو طارد أحد
الأرانب .

لذلك فهو مهيب مرهوب الجانب . ولمعرفة الناس بأسرار نفسه تراهم
لا يعنون أنفسهم بعناده بل يسارعون إلى الاستجابة . حتى نظراته الغرامية —
إن صح هذا التعبير — لا يكتب لها أن تطول . فالطرف الثاني يعلم مقدما أن
المراوغة تعب .. فتصبح وقائع الحب التي لا ينتهي عددها حوادث مبتسرة مثل
بلع الطعام .

وكان النجومى الكبير يرى أن ابنه هذا خير من يرث تاجه . ولذلك عندما
كتب للابن الأصغر أن يقيم بين أهله عاد يشعر بالغيرة . وبدأت حماسه تنخبو
فقد مر على إقامته عامان . وبدأ لون أحلامه في النصول من جو الريف

— ٣٥ —

وغباره . وشعر بما قرأه يوما عن تولستوى بأن الفلاحين خافوا منه وقد كان
ناصرهم في الظلمات وأحس بأن بعض البشر مثل أرض المستنقعات قد تكون
مهذا الجنة في المستقبل ، لكنها اليوم إن زرعت الأشجار فيها بين الماء والغاب
أكلتها بوحشية . كذلك .. قد تضيع الفكرة الصالحة ويهان نبي . ويهرع الناس
إلى المعابد الوثنية وليس في قلوبهم شيء من الرثاء حتى الغامض لنبي منبوذ ..

٤

مرض « النجومى الكبير » ومرض « محمد الجندى » فى يوم واحد ..
غاب الاثنان عن الدوار . وشعر « صلاح » بأن ساحته مثل كلمة غير
مفهومة .. أو مثل ساحة العذاب الرومانية بعد أن تخلو من الأسود والمعذبين
والنظرة ..

وبدا المكان وكأنه يخلع ملابسه قطعة وراء قطعة . لكنه الآن قد خلع
القطعة الأولى . ولم يكن « طه » جالسا مكان أبيه . لعله كان متشائما .
أما (شهاد الزور) الذين يحلى بهم مجلسه فقد التف بعضهم حول فراش
العمدة وسعى بعضهم فى الأرض .

كان الوقت صيفا والجو حارا ، وصلاح عائدا من توه من بور سعيد مرة
أخرى حيث زار صديقه الذى كان دليله نحو الهروب . كان اسمه « محمود » .
شابا قليل المبالاة لكنه شديد الذكاء . وهو الآن فى كلية الطب . وقد سهر
عنده صلاح وباتا يتحدثان — بطريقتهم — عن آلام الإنسان . كان
« محمود » يتحدث وهو يضحك عن الأمراض والجثث . يرى البشرية فى
صورتها بعد أن تبلى . هياكل وأعينا مغمضة ، ولذلك بدا قاسى القلب .
أما صلاح فقد كان على عكسه يرى (الفكرة) دون أن يخطر المخ على باله ،
(النظرة) دون أن يفكر فى تركيب العين . وسهرا يعثان ويلعبان الورق
ويتحدثان عن الحب وعن الحروب والناس . باتا يتحدثان عن كل شيء ..
ثم ركبا أحد القوارب ليجولا فى بحيرة المنزلة . ولم يرها صلاح فى هذه المرة

قاسية ، وإن كانت النافذة التي تدخل النور والهواء هي نفس النافذة التي تستعمل في الفرار من السجن ، لكن حتى شخصية الشباك تختلف من حادث لحادث ..

وقبل أن يفترق الصديقان قال « محمود » لصديقه : أنت الآن شيء مضحك .. أنت تعيش الآن على بقايا عصارة اكتسبتها أيام كنا في الثانوى . لكن هذه البقايا ستزول يوما ما . ستصبح ريفيا حقيقيا يا صلاح فى تكوينك وإن كنت غير مرتاح لما يجرى حولك هناك كما حكيت لى . لكنى أعود فأنصحك ..

فقاطعه « صلاح » : أنت تعلم أننى لا أحب الدراسة المنتظمة وهذا عيب يجر حياتى إلى الوراء . فماذا أعمل لنفسى ؟ .. إنها تطالبنى وتلح على كل يوم بأن أغير الأسلوب . والليل فى القرية يعذبنى .. فرد صديقه مداعبا : هل تقبل نصيحتى ؟ .. افتح ملهى فى المدينة .. وضعكما ..

وعندما عاد « صلاح » رأى جو البيت والدوار . وأحس عندما لمست قلبه هذه البوادر أن شيئا ما سيقع .. وكأنما ملأ سمعه نباح الكلاب .. ذلك الذى قال العلماء عنه إنه نذير بوقوع الزلازل .

وما لبث أن سعى نحو أبيه . رآه فى فراشه نهب الشيخوخة ولم يكن به مرض . كل ما به أن الحياة تنسحب وتتركه .. لكن عينيه لا تزالان فى قوتيهما الروحانية الشريرة . وكأنهما تنظران إلى فم قاض سيقول كلمة ما .. وملاح وجهه لا تنطق بها .. وكانت ستائر الحرير حوله مهصورة . ورائحة بخور تقليدى .. ومجمرة صغيرة على البساط .. ولما سأله عن حاله لم يزد على أن قال : « عال » بلهجة احتجاج على الموت الذى ربما رآه الأب من خلال أهدا به .

وشعر « صلاح » بالأسى .. وأحس — أنه على الرغم من كل شيء — له به رباط . وجفل العمدة يمسح على شاربه الفضى كما ينظف ريشه طائر أنيق .. واختلس النظر إلى ابنه الذى لم يلبث أن تركه بين عائديه وخرج .. ألقى نفسه فجأة عند دار « محمد الجندى » . كان الكلب واقفا على واجهة الباب فالدار من دور واحد . ولما رآه رحب به بعدة نبحات . ودق الشاب الباب فسمع صوت امرأة تقول : « ادخل » .. فعل .. كان الرجل راقدًا على حصير فى الدهليز المكشوف فى ظل أحد الجدران . وحملق « الجندى » إلى الشاب وابتسم . واستضاء وجهه بطمأنينة عميقة . طمأنينة من يريد أن ينال فى كنهه بعد أن عاد من غربة . قبله صلاح فى جبينه . فاحت رائحة عرق الفقير . وابتسم الرجل ثانيا :

— كيف حال الدوار يا صلاح ؟

— خراب ..

— لا قدر الله .. يقولون إن العمدة أصابته لفحة برد .. سلامته .

— وسلامتك ..

— من يعمل القهوة الآن ؟

— لمن ؟

— ليس هناك ناس ؟ ولا منازعات . ولا شهاد زور ؟ (وضحك) ..

— الدنيا تتغير يا صلاح .. غبت عنا .. ظننت أنك .. آه .. يعنى ..

— سأعملها ثانيا .. لا تخف (وقهقهه صلاح) ستعيش وترى .

سكت الرجل طويلا ومسح عرقه بكمه .. وجلس .. وطلب ماء

فأحضرت له امرأته كوزا .. شرب وتجشأ ..

— صلاح .. لعل كنت محموما فى الليلة الماضية .. لا أدرى .. مؤكداً أنى

كنت في حلم .. ومؤكد أنني غير نائم .. سمعت ناسا يسألون عني وراء هذا الباب . لكن أصواتهم كلها جميلة .. يسألون عني وهم يغنون بطريقة تخطف العقل .. ولما عطشت قدمت لي امرأتى الكوز فشربت فوجدت الماء محلى بالسكر .. سى صلاح .. لعله تخريف .. ولما جعت قدمت لي امرأتى (سبتا) صغيرا فأخرجت منه كل ما تشتهى نفسى .. تغذيت وتعشيت من طعام مختلف من نفس (السبت) .. سى صلاح .. ولما تقلبت على الحصيرة لم تكن بنت كلب كطبعها . كان عليها ريش مفروش .. وفوق رأسى طيور .. كأنها نفتت زغبها وفرشته .. سى صلاح .. هل بعض الحمى (ذواتى) وبعضها (فلاحى) ؟ هل أصابتني حمى أولاد الذوات .. أو أنى سأموت وأدخل الجنة ؟

وضحك « محمد الجندى » كأنه غير مريض .. أما « صلاح » فإنه أخذ يدق كفا بكف وهو يضحك . وقال له : إنه سيأخذه إلى طبيب المركز في الصباح الباكر . ولولا خوفه من أخيه « طه » لعرج عليه بالطبيب الذى كان يعود والده العمدة ..

قال « محمد الجندى » وهو يضحك في وهن :

— أراهنك .. إن سمع حتى للبيطرى . نحن نحارب الأمراض بعدم الخوف .. يا ما نصبنا للذئاب فخاخا وجررناها من ذيولها ودخلنا بها البلد . ولما شخنا عملنا (قهوة) .. كنت أسمع أبى يكلم الله في الليل عندما يصيبه كرب كان يقول له كل ما في نفسه .. كأنه صاحب سهران مع صاحبه .. واحد في السماء وواحد في الأرض .. وعندما ينام يصبح بلا هموم .. وقد فعلت مثل أبى منذ ليلتين .. وقالت عني هذه العجوز المجنونة إننى مجنون .. لكنى سمعت ورأيت ما حكيت لك عنه .. المهم .. هو كيف حال العمدة !؟

— لا خير ولا شر ..

— شفاه الله .. وأنت يا سى صلاح .. لك خلقة غير خلقة كل الناس هنا

.. متى أراك ماشيا في شوارع مصر ..؟

وسكت قليلا . وسرح « صلاح » يفكر « لا بد أن أفعل ذلك » وهب نسيم .. ومالبت « محمد الجندي » أن استطرد في شبه دعاية كأنها تحمل ألما :
— كم آية من القرآن ستكتبها على قبري يا سى صلاح .. لا تنظر هكذا فأنا والله أقول الحق .. فقراء الموتى في القرى يدفنون في قبور بلا شواهد وليس على أبوابها آية واحدة .. (ويضحك الرجل) حرام .. آنسونا بعد موتنا بكلمة ..

اغرورقت عينا الشاب بالدموع .. وتراءت لمخيلته كتل ضخمة من الظلمات وكتل أخرى من النور .. وأخذ يفكر في التركيب الإلهي لرجل مثل عم « محمد » هذا الذي أخطأه كل شيء حتى التعليم .. وكان حظه في أرض « النجمي » أسعد من غيره فقد كان أبوه سائق عرباتهم وكان هو .. محمد الجندي .. مكلفا بغسل العربات وتنظيفها .. ورعاية الأطفال الذين كانوا يحبونه .. فكل طفل قد جاوز الخامسة من العمر من أبنائهم لم يخل خياله من حكاياته ذات الشواطئ والسواقي والجبال والشجاعة واللصوصية .. كان نوعا من الرجال إذا ترك لنفسه العنان فتداعت المعاني في رأسه لا يكاد يكف .. وهو لذلك ذو جذور قوية في هذه الأرض .

وسأل صلاح نفسه .. ماذا كان يمكن أن يكون من مثله لو تعلم ؟ لكنه كف عن الإجابة فقد شعر بخنجر يخزه في جنبه .. إنه هو .. صلاح .. ينقص شيئا كبيرا فماذا يكون يا ترى ..

وأضفى من الرعاية على الرجل العجوز ما استطاع ثم فارقه بنفسه المموم ..

ولم تمض أيام قلائل حتى عاد العمدة إلى الدوار .. علا في ذلك اليوم ضجيج غير عادى ولم تحدث خصومات .. وحتى الخصومات التى حدثت أجلت .. يوم عيد .. هكذا قال الناس له .. لكن « محمد الجنيدى » لم يحضر بعد .. إنه لا يزال مريضا . لكن أهم حادث اليوم هو أن السيد مأمور المركز مر على العمدة وهنأه بسلامة الشفاء ، ثم أخبره وهم على الغداء أن فرقة تمثيلية متجولة ستطوف بالمراكز وأنه — أى السيد المأمور — يرى أن القدر نفسه يحتفل بشفاء « النجومى الكبير » ، فبدلا من أن تعرض الفرقة ما عندها في المركز فماذا لو عرضت ما عندها هنا في قريته التى لا تبعد عن المركز بكيلو واحد ..

واستمر آل النجومى الفكرة وبدأ على « طه النجومى » اهتمام أشد غموضا من الاهتمام البادى على وجه المأمور .. فقد علموا أن فيها سيدة لبنانية وبنات مثل الحوريات وأنها ليست من ذلك النوع الذى تحفل به « سنوامر » الريف بل هى فى الحقيقة قطعة من المدينة ستنزل القرية .

أما صلاح النجومى فقد بات يحسب الأيام .. وخلال فترة الانتظار هذه بدت له عيوبه الشخصية . بات غير راض عن نفسه .. فهو يعلم تماما أن الفرق كبير بين الذين يعصرون العنب والذين يسكرون بالنبيذ وهو يريد أن يعصر العنب ويسكر بالنبيذ فى وقت واحد . هناك غناء يخفف من العناء وغناء يترجم عن المسرة . يريد هما معا .. لكنه يكره الدراسة . وها هى ذى الفرقة التمثيلية المعروفة قادمة إلى قريته . سيكون كل شيء مضيئا وسيحمل العمدة كل نفقاتها وإكرامها تعبيرا عن شكره لله بأن شفاه وعافاه .

النور سيغرق القرية وسيسهر الفلاحون ليروا ما يراه سكان العواصم .. الأذرع العارية والوجوه التى تشبه التفاح .

غير أن « طه النجومى » كان يقول ساخرا : إن حوادث متناقضة ستقع في القرية بعد رحيل هذه الفرقة مباشرة .. حوادث طلاق وحوادث حمل .. لا شك في ذلك . أما صلاح فقد كان يرجو يوما ما أن يكون شيئا . ولو واحدا من هؤلاء النكرات على مسرح مثل هذا .

على أن العمدة نفسه بعد عودته إلى مجلسه في الدوار كان يحس أن المكان ينقصه شيء هام . كان يحس بأن روح « محمد الجندى » تؤلف في وجوده شيئا لا يمكن أن يتجاهل ، فهو رجل جارج في نقده لكنه صادق في صدقه . وهو بعد ذلك كله الشخصية التي لم تعرف الخوف يوما . ولذلك فقد أرسله العمدة إلى الطبيب . ويوم عاد قال له بنبرة جد تخفى إعزازا ما : كنت أريد أن أرى وجهك لكن يهمنى أن أسمع صوتك في هذا المكان .. غريب .. صوتك يؤكد لى أنني حى . أنت فلفل ملعون لكننا تعودنا أن نأكل طعامنا بك .

* * *

وكان أول ما عمله صلاح النجومى ليلة قدوم الفرقة أن قابل مديرها . كان صلاح في ملابسه القروية الفضفاضة وهياته الحلوة مثار إعجاب من رأوه منهم . وعندما جلس يتحدث عن « الملك لير » وعن « ديدمونة » التف حوله الكل ، ووضعت فتاة في مقتبل عمرها ذراعها فوق كتفه وطوقت عنقه . وعرف منه مدير الفرقة مجمل قصته . وكانت القرية غارقة في النور . أحضر لها النجومى الكبير (محركا) كهربائيا بمناسبة الليلة . وبدأت الحقول المحصورة والبرك البعيدة شديدة الحياة في الظلام . بدت القرية .. حتى المباني الطينية كان عليها شيء من الزهو . وكان الجو حارا فساعد على الحركة .. خرج الفلاحون من كل سن ولم يبق إلا الأطفال والمواشي والطيور . والعجائز المتقاعدون بكوا ثم استعانوا بالتزهد . أما الذين كتب الله لهم الموت في هذه الليلة فقد

جلس ذورهم حول جثتهم فى صمت . وربما لم تخل دموعهم من عتاب وأمر العمدة أن تكون هذه الليلة خالدة . فلا يضرب أحد ولا يشتم أحد . وأن توزع السجاير على الرجال واللبان على النساء ، وأن يأخذ فلاحوه أجازة من العمل فى اليوم التالى ، ليناموا حتى الضحى ، وأجرهم محسوب . ومن تلد ولدا فى الصباح التالى لهذه الليلة فله من العمدة جنية كامل . أما البنت فلها خمسون قرشا . ومن مات فى اليوم التالى لهذه الليلة فنفقاته الأخيرة على العمدة ، وعلى كل رجل غاضب امرأته أن يصالحها فى هذه الليلة حتى ولو كان صلحا من قبيل الهدنة ، وباختصار لا بد أن تشعر كل نفس بالسعادة وبأن نعمة كبرى قد أنعم الله بها على الناس بشفاء النجومى الكبير .

ودرج المكان الذى سيقف فيه الفلاحون بإلقاء كميات كبيرة من الرمل ترتفع بالتدرج كلما بعدت عن خشبة المسرح . وكانت الفرقة قد أعدت عرضا لمسرحية عن (شهرزاد) .. ورأى الفلاحون الملك (شهریار) قاتل العذارى .. وكانوا يعرفون قصته .. ظهر على المسرح المنصوب فى الحقول والذى لجأت تحت خشبته الضفادع تنقنق فضحكوا لها . لكن (شهریار) لم يضحك . بهرهم بوقاره ووجهه الذى لا يعرف الابتسام فتذكروا العمدة ، الذى لم يكن قد وصل بعد والذى بعث برسول يقول لهم أن يدعوا كرسيه خاليا فى الصف الأول حتى يجيء على مهله .

وبظهور الملابس المزركشة والوجوه الصبيحة التى زاد الماكياج روعتها خداعا نسى الجالسون شيئا فشيئا أن كرسي العمدة خال منه .

وكان الحراس حول الملك وقوفا فى ملابس زاهية وفى أيديهم رماح وفى خواصرهم سيوف . وبينهم شاب فارغ الطول واقف فى زهو يرجو أن يدوم إلى الأبد بهر عيون المشاهدين عن قرب ، ولم يكن هذا الشاب إلا صلاح النجومى .

كان في وقفته هذه ولو أنها في دور صامت يحس أنه يحرس محرابا قدسيته لا توصف . وكان مطمئنا إلى أن عين والده وأخيه لن تعرفه حتى ولو كانا جنبه على خشبة المسرح . وكان ينظر إلى جمهور القرية الفرح ويتخيل — في شبه هذيان — أنه سيعيش كهذا أبدا .. فشعر بالفرحة ..

كان الملك « شهریار » يخطو على المسرح ويناجي نفسه بصوت مرتفع : « إن قتلى للعذارى تعبير عن أن ملكياتي لا حدود لها ، وأنى أتمتع بحرية أعظم ملك .. فبدلا من أن أكسر الكأس بعد أن أشرب منها مرة وأرمى الرداء بعد أن ألبسه مرة ، وأقذف بعيدا بالوسائد التى أستلقى عليها مرة .. بدلا من هذا كله أعمل ما يدل بشكل أعظم على أن ملكياتي لا حدود لها .. نعم .. أقتل كل عذراء أتزوجها بعد الليلة الأولى بدل أن أقذف بها حية فيشرب رجل آخر فضلة شراب الملك .. نعم .. لكن .. أيها الحراس .. أين هذه الفتاة التى قالوا لى : إن اسمها شهرزاد ؟ » . فتحركوا على المسرح بسطوة جند الرومان . وتعلقت عيون الفلاحين وأنفاسهم ينتظرون دخول الفتاة التى قهرت بحكاياتها هذا الطاغية .

ودخلت حسناء تبختر .. فى ثياب من الخمل والذهب .. وانتقل الترف بهذا المنظر إلى حقل حصد منه البرسيم حديثا .. وجأر الرجال وشهقت النساء .. وتسمرت العيون وأرهفت الآذان ، وسمعوا « شهرزاد » تقول وهى تنحنى : مولای .. (فصفقوا) ..

كان هناك بين النظارة مهمومين وأنصاف مرضى ومطحونون ومعظم الجميع حفاة وبعضهم يحس بمغص كلوى وبعضهم ترك فى الدار مريضا ، لكنهم أحسوا بنشوة نسوا معها أنهم فى القرية .

كان « طه النجومى » جالسا إلى جوار كرسي أبيه الذى لا يزال خاليا لكنه

نسى وكذلك بقية الوجوه فى الصف الأول . وكانت عينا صلاح على كرسى أبيه الذى لا يزال شاغرا . وعندئذ سأل نفسه : « لماذا يا ترى لم يأت ؟ » .. وعاد فاندمج فيما حوله « عطر روحى يفوح فى الحقول » .. هكذا رأى .. وتفحص نظرة الناس فى الفنان فكاد يبكى . وجعل يوازن بين نظرهم إلى هؤلاء ونظرهم إلى هؤلاء .. أى آل النجومى . فتنهده وهو يقبض يده بقوة على الرمح الذى يحرس به الملك على المسرح . ثم نظر معجبا إلى الملابس التى ألبسها له مدير التمثيل ..

وسهرت « شهرزاد » تحكى وتراود الملك .. والفلاحون مسحورون . وكل حبلى تمت أن تضع أنثى .. على عكس المؤلف .. لتسميها بهذا الاسم . وانتهى الفصل وبدأ فصل ، ثم .. نهض من الصف الأول « طه النجومى » وغاب أطول من المؤلف ، وكان صلاح لا يزال واقفا فى الحرس بالملابس الزاهية والسلاح اللامع فما لبث أن لاحظ أن كرسين أصبحا خاليين وأن شقيقه غائب ..

قال أحد الفلاحين لزميل يجلس إلى جواره مازحا له : لو دام هذا فماذا يكون اسمه يا ابن أمينة ؟ فرد عليه جاره : يكون اسمه جنة رضوان يا أهل الجنان . وهمسا بالضحك ..

لكنهما ما لبثا أن سمعا ما دهشا له . وكذلك بقية الحاضرين . كان « طه النجومى » يعدو نحو ماكينة النور ويصيح كالثور بصوت جريخ مسموع مبحوح مفهوم نوعا ما :

« أطفئوا الأنوار .. اهدموا كل شئ .. العمدة مات .. مات النجومى الكبير .. »

وأجهش بالبكاء ..

ولم تكن هناك ثانية واحدة للاعتراض أو التفاهم أو الحيلولة بين هذا وما وقع ، فقد رن عويل بين النخيل . وسارع عامل النور بتنفيذ الأمر فساد الظلام . وأشعل بعض الحاضرين مصابيح صغيرة حتى أتوا بفانوس تستطيع الفرقة أن تلم شعنها على نوره .

وبدأ الفلاحون يعودون إلى بيوتهم في الظلام . كان يبدو لهم أكثر حلقة كأنهم وافدون من المدينة . وكان بريق الثياب المقصبة لا يزال يخطف أبصارهم وكذلك همسات « شهرزاد » .. تلك التي منحت نفسها حق الحياة في مخدع الملك السفاح « ألف ليلة وليلة » — عجزت عن أن تحمى نفسها نصف ليلة في أرض النجومى .

وعاتب الفلاحون ملك الموت وهم في الأزقة والحارات ثم وهم يأوون إلى النوم على السطوح في عراء ليالي الصيف . وشعر بعضهم بطعم إحساس غريب .. لا هو فرح ولا حزن ولا هو ضجر ولا هو ضيق .. بل شعروا وكأن القدر ممثل يلبس قناعا يبدو أمامهم هذا القناع ونصف وجهه ضاحك ونصف وجهه يبكى ..

وقال « محمد الجندى » وهو في الدار لامرأته التي عادت تقص عليه تفاصيل ما حدث : « العمدة .. رجل ليس في قلبه رحمة حتى في طريقة موته .. ابنه يحرق المستشفى الحكومى .. هلى تتذكرينه يا فاطمة .. ليلتها أثار القرية وكنا لا نريد هذا النور .. ظلت النار تضيئ الحارات طول الليل . واللييلة يا فاطمة .. يطفىئ ابنه النور .. وعلى كل حال ادعى الله ألا نعيش حتى نترحم على النجومى الكبير .. » .

وانطوى الفلاحون في مراقدهم كأطفال سحبت من أيديهم اللعب .. مهمومين ..

أما صلاح النجومى فقد ذهل تماماً للأمر . انزوى فى الظلام وحده كأنما هو الذى اقترف كل ما حدث . وذكره النوع الجديد من الفشل بما وقع له فى سفينة البضاعة . هناك خطف أمله وهنا خطف فرحه . ولم يكد يفكر فى أبيه بمثل ما فكر فى هياج الناس تحت الظلمة . كانوا حائرين بين أن يضحكوا مما حدث وبين أن يبكون منه . خصوصاً عندما علموا بعد قليل أن رجلاً آخر قد مات فى القرية ومن الغريب وربما كان من الأغرب أن يكون هو « الحاد » القرية وقد اشتهر بكرهه الشديد للعمدة وكان يدعو الله أن يحيا حتى يوسده التراب فى المقبرة التى كتب عليها نصف القرآن .. وعلق الناس على ذلك لا بشيء إلا بقولهم : ليلة موت العمدة انطفأ النور ومات اللحد نفسه .. أما صلاح فقد ظل ساهماً واقفاً كمن فقد ذاكرته .. وأخيراً تحرك .. مشى فى الظلام بعد أن انصرف الناس .. ثم دخل إلى بيتهم فإذا بالوجه كلها تخملق فيه . وبعضهم هرب . فقد نسى صلاح مما حدث أنه نزل من فوق المسرح بملايس الحراس الخاصة بالتمثيل ، ولما اكتشفوا ذلك عفرتة أمه بالتراب وأمسك أخوه بتلابيبه وكاد يخنقه وهو يقول :

« هزأت النجومى الكبير حيا وميتا .. لن نقيم هنا أيها الفاشل الملعون » ..



رحلت فرقة التمثيل وثيابها ناقصة ثوبا .. ولم تجد من يحاسبها على ما قدمت . ورحل العمدة وترك ثيابه كلها ..
وجلس « صلاح » فى مأتم أبيه مكسوبا مهزوما يفكر فى الرحيل المؤكد . وخرج محمد الجندى إلى مراسيم المأتم بجسم ناحل يوحى هو الآخر بأنه على وشك الرحيل .
كان « محمد الجندى » ينظر إلى الجموع المطرقة فى حزن ، الجالسة لعزاء « طه النجومى » ويفكر طويلا ..

وكان صلاح يوازن بين فرحة هذه الوجوه التى كانت حقيقة والتى بدت لصدقها وكأنها لعب ثم يتأمل هذا الشيء المصنوع فىرى الكذب بعينه .
وشعر صلاح أنه لم يخلق للإقامة فى الريف وتذكر شوارع القاهرة . والليالى والأمسيات التى كان يحتلها وهو طالب فى المنصورة . وميدان الأوبرا والإعلانات التى تحمل أسماء النجوم . وليالى المطر وأبو الفرو المشوى ورائحة السودانى والسجائر والكبريت عند باب دور سينما عماد الدين .. والحارة الملتوية المظلمة عند دار الكتب تلك التى تصل ما بين شارع محمد على والخليج .. وبعض اللأئى كان ينزوى بهن جنب الجدران المخططة . حتى الحب كان مرتبطا من باب المصادفات بهذا المكان . والمجلات الأدبية ، خصوصا تلك التى يحمل جلدها زخرفة عربية كأنها نقش على جدار مسجد تاريخى ، وما يقرؤه بين حين وحين عن معارك لرفع منارة جديدة .
وحضره وجه أحد مدرسيه الذين كانوا فى المنصورة . ذلك الوجه الصغير

والرأس الأصلع والوجه المدور تماما المسمسم تماما الصافي البشرة كوجه طفل وحديثه المرح المتدفق وقامته القصيرة حين كان يرفع وجهه إلى « صلاح النجومى » ويقول له : « إن كنت مغرورا بأرض أبيك فاعلم أنها ليست ملكه . وبالتالي لن تنفعك . أنت تملك يا بنى ذوقا وحسا حرام أن تهمله . أبوك عنده سياس للخيل وأنت عاجز عن أن تسوس أغلى ما يعطيه الله للإنسان .. أنت خائب كتلميذ لكن .. ربما كان لك مستقبل .. لا أدرى .. » .

وعبثا حاول « صلاح » حين كان يلج على هذا المدرس حجرة المدرسين ويتودد إليه وحينما يكون وحيدا معه — حاول أن يفهم .. منه ما يقول . فما معنى أن أرض أبيه ليست ملك أبيه وأنها بالتالى لن تنفع صلاح ! وما معنى أنه يعلم أن صلاح تلميذ فاشل ولكن ربما يكون له مستقبل !؟

فكان هذا المدرس العذب الحاد يضحك ولا يشفى له غليلا .. وها هو ذا اليوم يعلم أن هذه الأرض حقيقة لن تنفعه . كأنها نبوءة . هذه مقدمات أعاصير تلوح فى حياته . أولها سقوط مهابته فى أعين الفلاحين عندما علموا أنه دخل على أبيه الميت بملايس التمثيل .. ثم نظرة أخيه القديمة له . ثم تكوينه النفسى . هو شخصيا يشعر أن يديه هاتين صالحتان لعمل غير ضرب الناس وسرقة ما فى الجيوب قبل أن يدخل إلى الجيوب . ويشعر أن نفسه محتاجة إلى أشياء كثيرة لكنها مع كثرتها متناهية فى بساطتها . محتاج إلى أن (يعرف ليرقى) وهذه الكلمة خلاصة إراداته بل وشهواته . وهو وإن كان الآن فى التاسعة عشرة من العمر فهو أكثر نضجا منه منذ عامين .. فكأنما كبر عشرة أعوام . ماذا سينازع عليه أخاه « طه » .. « طه » هذا قد كون شخصيته وعرف طريقه .. وهو بعد الآن غنى عن المعرفة . فليست الشجرة التى تبلغ فى أعلى مستوياتها خمسة أمتار بقادرة مهما سقيت وروعت أن تكون فى انطلاق شجر الغابة .

(للزمن بقية)

وأحس « صلاح » أنه في حاجة إلى البكاء .. كان يرى صفوف المعزين وهم ينصرفون ويرى التاج الطيني على رأس أخيه قبل أن يوضع حتى أن بعض القرويين كانوا ينادونه مقدما بحضرة العمدة .

ولم يحس صلاح بأى نقمة على أخيه . بل أحس أنه وجد الطريق الذى يصلح له . « لكن العيب فى أن آخذ طريق غيرى وأعطى غيرى طريقى .. وعندئذ سيكون الضلال مضمونا » .

وتأوه .. عادت إليه ذكريات ليالى المنصورة .. والشعر المكسور .. والشعر الأصفر .. والأمانى الثقافية .. وعظمة الرحلات .. وناس يرى صورهم فى المجلات والصحف .. مثل عدة أنبياء فى هذا العصر تعددت رسالتهم . وهناك أيضا أنبياء عدة لرسالة واحدة .. يختلفون بعد تلقى الوحي وصوغه للناس فى صور الفن والأدب .

وتصور « صلاح » أنه أخذهم يوما وجعلهم فى قصر مسحور حتى يكونوا ملكا له .. يعنى .. أوقاتهم وتعاليمهم .. وعندئذ كان يضحك فصوت البلبل الذى أعجبه وخطف له واهتمامه منذ الطفولة حتى أصبح يحاكيه محاكاة غريبة ؟ هذا الصوت سحره ناجم من أنه يتردد فى فضاء السماء . ولو غنت له سيدة الغناء فى حجرة مقفلة ومعها زينتها وفرقتها ما أحس بالحبور .. فالنغمات .. الخلاء الواسع وطنها الطبيعي وكذلك الفكر ..

وتصور شوارع القاهرة المشوشة بالليل .. ورجالا يلبسون أحذية برقاب طويلة ليزيدوا الشوارع تلميعا بعد أن يعود الناس من السهرات . وماذن تلمس القمر . وقلوبا . وكتبنا وبيوتا يجتمع فيها المفكرون ، والسيدات .. اللائى يشاركن فى دفع الحياة وسحرها . أحمر الشفاه فى حقائب أيديهن وإلى جنبه قلم الكتابة . ومراة صغيرة . وجدول بمواعيد العمل . وبنطلونات يلبسها على

ظهور البواخر . وعالم يحرك بعضه بعضا . فيه كل يوم فكرة تجعل الماضى قديما والحاضر معقولا والمستقبل أكثر سحرا . عالم .. حتى الشحاذون فيه أصحاب مواهب يحملونك على أن تعطيهم وأنت غير مقتنع لأنك تعطى (فهم) الذى حرك الكف فى اتجاه غير الذى يريد صاحبا . وحتى اللصوص فيهم ذوو مواهب .. وحتى الأطباء ..

وهز هذا الإحساس كيان الشاب فبكى .. أجهش بالبكاء فجأة ، كان لا يزال جالسا فى الدوار والناس من حوله فإذا بالرجل الذى عن يمينه والرجل الذى عن شماله يرتان كل على كتفه بطريقة ريفية فذة ويهمسان له كل فى أذن : عيب .. اصبر .. الرجال لا يكون ..

كاد بعضها يضحك .. أما أخوه « طه » فقد كان يجول بين الناس فى أهباء الدوار الكبير وكأنه فارس يجر طيلسانه . كان عوده وحركاته وكل شئ فيه يتحدث فى صمت (يقال إنه حزين) عن عظمة الوارث وعظمة الموروث .

وانفض سامر الحزن فى قرية « النجومى » مثلما انفض من قبل سامر الفرح . وتفرق الفلاحون كما تفرقوا من قبل . وعادت إلى الحقول أصوات الثيران والجرارات ولكن بلا غناء . أما « صلاح » فقد قال لأخيه :
— إني أريد أن أرحل .

فقال له صارما .

— هذه المرة باختيارك .. هذه المرة ليست على حساب أحد إلا جيبك وحده . مات أبوك وانتهى الأمر . (ثم بنبرة غريبة صادقة لم تخل من الحنان) أنت حقيقة لا تصلح للمعيشة هنا يا صلاح . فكر على مهلك .. ولم ينم « صلاح » هذه الليلة ، بات يفكر : « سأرحل إلى القاهرة ..

أنهى سيعطينى إيجار ما ورثته عن أبى من أرض .. ولكن .. إن ميراث أبى من المعرفة لا يصله إلا بالتجار والسماصرة وربما المرايين ..

و .. أخذ يتذكر .. « رجل من رجالات البنوك ، رأيت مرة ، كان يتغدى عندنا ، الأبيض الوسيم الأنيق ، لا أعرف له لقبا ، هو أستاذ وبك وباشا ، لكن هذا لا يعينى . كان فى يده يومها مجلة غير مشهورة لكننى أخذتها وجعلت أقرأ فيها . يومئذ قال باسما عن أسنان نظيفة : هل أعجبتك ؟ فلما أوامأت أن نعم قال لى : إنها لك . لست هاويا ذلك النوع من الكلام . خذها فإن صاحبها يبعث إلى بعدد منها كل شهر .. إنها شهرية .. » .

وها هو ذا صلاح النجومى وقد سكن فى شارع حسن الأكبر فى القاهرة يرى دار الكتب من نافذة جانبية من مسكنه . وها هو ذا يذهب إلى بنك .. ليقابل (الأستاذ البك الباشا) ، ورحب به بعظمة الألقاب الثلاثة معا وطفولة فى شخصيته الباهرة . وأرسله بتوصية إلى صاحب المجلة .

كانت تقع فى شارع محمد على المؤدى إلى القلعة على مقربة من دار الكتب ، فى مستطيل أهل على مسافة نصف كيلومتر ، بالمكتبات والمطابع والمطاعم وفنادق النوم .. وبواكى الشارع أهلة بالمصقات التى تحمل أسماء النجوم والفرق والإعلانات المختلفة .

وأحس « صلاح النجومى » أنه مغموس فى نشوة .. أعماق عطرية مسكرة . فى جيبه نقود وقد ترك القرية . وسيقابل صاحب هذه المجلة الشهرية وسيعمل فيها عملا ما وعن طريقها سيتعلم .. « لتسقط الدراسة المنظمة .. » فليعمل حتى بلا أجر . المهم أنه يتعلم .. كيف يصل إلى ما فى أعماقه . إنه حنين غريب . لا يستطيع أحد أن يعرف ما هو إلا أصحاب المجالات .. نظر إليه الرجل نظرة غريبة ، كان جالسا خلف مكتبه قصير القامة ضعيف البصر

نحيف الوجه ، وأمامه شاب فى كامل بزة وهياة من أجمل ما منح الله . وأخذ يتفحصه وكان شديد الذكاء ، فعرف بسرعة ماذا عسى أن يكون .. خصوصا عندما عرف لقبه وعرف أن أسرته من ملاك الأرض . ولم يكن فى المجلة موظفون بالمعنى المعروف ، كان فيها رجل يعتصر رزقه اعتصارا من يد رجل آخر هو صاحب المجلة . وعندما رأى الأول صلاح النجومى يدخل عليه ومعه توصية من (الأستاذ البك الباشا) قلق على مصدر رزقه ولو أنه ضئيل . لكن ما حدث بين صلاح وبين الأستاذ التهامى صاحب المجلة كان على الوجه الآتى :

الشاب واقف والرجل يحمق إلى آفاق بعيدة بشروء لا يخلو من التمثيل ينظر فى السقف ثم فى الورق ثم فى الساعة ثم فى الشاب وأخيرا قال له :

— لقد جئت فى الوقت المناسب (خفق قلب الشاب كغريب عاد إلى وطنه) فتحن فى أشد الحاجة إلى مترجم متمرن ، ويبدو أن الأستاذ قد أرسلك لأنه يعلم مدى حاجة المجلة إلى ذلك .. حسنا .. سترجم عن الفرنسية .. أليس كذلك ؟ .. هيه ؟!

جف ريق الشاب .. هز رأسه بالنفى ولم يتكلم .. وخيل إليه أن قوامه يقصر شيئا فشيئا . وعندئذ دهمه الأستاذ بسؤال آخر :

— حسنا .. عن الإنجليزية ؟ .. لا بأس .. يمكن أيضا .. الآداب العالمية بعضها يعيش على بعض .. سمك يتكاثر بالتآكل .. ها ها ها .. وأنا سأترجم أدب الأطفال وأكتب المقال السياسى .. وعليك أنت بالكلاسيك .. (نطقها مفخمة جدا) ..

هز صلاح رأسه نفيا ، وندم على ما فعل ونظر إليه صاحب المجلة الذى هو فى واقع أمره غير محتاج لشيء من هذا وقال له : إذن ماذا تريد أن تعمل ؟ هل

سبق لك العمل بالصحافة ؟ هز الشاب رأسه في إرهاق كأنما هزه ألف مرة .
وود لو أنه جرى لكنه خجل . فعاد الرجل يسأل بتلطف شديد على عكس
ما كان الشاب يتوقع :

— إذن ما هي ثقافتك ؟!

فأخبره في تلجلج .. فسكت الرجل وأشار إليه بالجلوس ثم دق الجرس ..
فدخل عليه رجل في منتصف العمر على محياه علم وكآبة .. وخجل ، في ثياب
تمثل الرثالة الأنيقة . وقف أمامه يأخذ الهواء من أنفه بين حين وحين وصاحب
المجلة يسأله : هل ترجمت كذا ؟ .. وهل صححت التجربة ؟ وهل قابلت
فلانا ؟ وهل ذهبت إلى البنك ؟ وهل أعطيت (فكرى) الصغير درسه ؟ ..
وهل النظافة في المجلة على ما يرام ؟! ..

كان الرجل يمين دائما بنعم . وكان صلاح النجومى جالسا ساعته على
كرسى من الجلد تساقطت أحشاؤه فبدا عميقا .. وأخذ يخلق في صاحب
المجلة فإذا الذكاء يقطر من وجهه الخبيث . ثم أوماً للموظف برأسه علامة
الانصراف .. فمضى وترك صلاح النجومى في المقعد المتداعى وأخذ يكتب
شيئا حتى وجد الشاب نفسه محرجا بين أن يقطع عليه ما يفعل وبين أن يبقى
هكذا وبين أن يخرج بلا استئذان ، وأخيرا تشجع وقال : « أستاذن » . فهز
له رأسه بالإيجاب .

كان في خروجه يجتاز طريقة مبطنة بألواح من الخشب تقادمت وتآكلت .
وكانت عينه في الباب الذى سيؤدى به إلى البهو الخارجى ليترك الدار . لكنه
قبل أن يصل إلى البابلقى الرجل المتوسط العمر والطول الخجول الذى يحمل
بعض الوسامة والذى كان عند صاحب المجلة — ألفاه واقفا بانتظاره . فوضع
الرجل يده على كتف صلاح ورفع إليه رأسه وقال له وهو ينفخ من أنفه لكن
بحياء :

— سأكون هنا وحدى هذه الليلة . ممكن أن تمر على ؟
 خلق صلاح فى عينيه الملونتين خلف النظارة الطبية ثم قال له بقلب
 مرتاح :
 — ممكن .. ممكن جدا ..

عندئذ انفرجت شفتا الرجل عن ابتسامة سأل صلاح نفسه عن مدى
 سحرها لو أنه شاب . ابتسامة كأن صاحبها لم يعرف القلق ولا الخوف
 ولا المرض ولا الحاجة فى صفاء ابتسامة طفل يستكين لدفء صدر الأم .
 ولم يكن هناك عناء كبير بالنسبة لصلاح فى العودة مساء . حتى ولو كان
 المكان بعيدا . انحدر من شارع حسن الأكبر حيث نظر فى شوق صوفى إلى
 مدخل دار الكتب وهو مار بها وكانت ليلة صيف طرية . وميدان باب الخلق
 يموج بالنور والروائح ثم انعطف إلى يساره إلى حيث يلقي الرجل فى المجلة .
 كانت فى بيت كبير قديم ، مدخله يقبض القلب . لكن حوش البيت
 الواسع المكشوف كان مضيئا بالقمر وبعض الأنوار الخارجة من النوافذ ،
 ويغلب على المكان رائحة كيروسين وورق وربما تراب . وفى السلامك
 المواجه عرف طريقه . ولم يجد أحدا يستأذن منه . دخل فوجد الرجل مكبا
 على تجارب ليصحيحها . كان قد أوشك على الانتهاء ، لكن صلاح النجومى
 أصر على أن يساعده بأن يقرأ عليه (الأصل) ، وكانت علامات الرضا
 تتخيل على الوجه المظلوم الجالس أمامه على مكتب ذهب دهانه . حتى إذا
 ما انتهى العمل اعتدل الرجل فى جلسته وحرك أطرافه واستلقى على الكرسي
 وتأوه بلا تذمر كأنما ليعلن لنفسه أن العمل قد انتهى ..
 مرت فترة صمت . كل منهما ينظر فيها إلى الآخر ، كل منهما كأنما يسأل

القدر في نفسه عن السبب الذي من أجله دبر هذا اللقاء . وعادت الابتسامة
المؤنسة إلى فم الرجل وسأل الشاب بلطف رقيق :

— أعمل لك قهوة ؟ (وقبل أن يجيب صلاح كان الرجل قد استطرد)
لكن ليس عندي بن ..

يتكلم كأنه يقرر حقيقة لا جراح لها . كأنه يقول الجو حار وليس عندنا
مروحة . وضحك صلاح ، ورد بشهامة الريفي :

— متشكر .. يكفي لقاءك ..

فقال الرجل :

— حسنا .. هل تدخن ؟

فأخرج صلاح علبة سجائر ووضعها على المكتب وأشعل كل منهما
واحدة .. هكذا ببساطة .. وعندما استوعب الرجل الجالس على المكتب أمام
الشاب أول نفس من السيجارة بمجوع شديد استرخى على الكرسي وقال له
وكأنه يعرفه أو يقرأ عليه مقالا في إحدى التجارب :

— اسمع يا سيدى .. اسمى « البدوى السيد » .. يعنى على عكس « السيد
البدوى » . أظن أن هذا اسم لا ينسى .. وإحساسى بأن اسمى على عكس اسم
« السيد البدوى » يجعلنى أتوقع أنه لا بركة فيه .. (وضحك لكن صلاح
كان منتبها متألما) ويزيد في ظنى هذا ما ألقاه في حياتى ..

ونفخ الهواء من أنفه وحملق في مصباح السقف .. كان ذباب كثير يرصع
سلكه الطويل . يرقد بطريقة كائن أغمض عينيه عن النور حوله . فقال
البدوى لصلاح وهو يشير إلى السلك :

— فى حياة بعض الناس أشياء مثل هذا . تصور أننا هيحنا هذه الأبایل

بعضا مثلا .. ليس هذا مهما لكن المهم هو أنني أردت أن أعرف منك .. أى سبب فظيع رمى بك إلى هنا ١٩ ..

حاول صلاح أن يتكلم .. لكن الرجل منعه بإشارة من يده .. تلك التى لم يكن كفها نظيفا .. فيها صفرة تدخين وحمرة من زجاجة حبر .. ومد يده إلى العلبة وأخذ سيجارة أخرى . أحس صلاح بعدها أنه نفسية لا تشعر بالتحرج .. ذات سحابة مليئة بالأمان والتعاسة . ثم استطرد البدوى :

— لكى أحدثك عن (جونا) لا بد أن نحتاج إلى أيام .. كنت أقول الشعر فسكت عنه لأننى وجدتنى أرسم به بلائى .. وأنا شخصا أرى أن حياة مثل حياتى حرام أن ترسم .. (ونفخ الهواء من أنفه) موقع حذاء ملوث بالطين على سجادة عجمى .. آسف .. قل .. قل لى من أنت ١٩

قبل أن يتكلم صلاح وهو الشاب الصغير عجب كيف يطمئن إليه رجل لا يعرفه ؟ وكيف يفضى إليه بمثل ما أفضى .. فاته أن الإناء الطافح لا يتخير ما يريق عليه طفحه .. لكنه شعر بحب شديد وعطف لا يوصف .. وشعر أن (الأستاذ البك الباشا) قد صنع جميلا حين ساقه مصادفة لملاقاة مثل هذا الشخص . إنه وهو يصف تعاسته يشعرك وكأنه يخلع ثوبا باليا ليرتدى آخر قشيبا .. وجهه لا يحمل آية من آيات التذمر . كأنه نموذج يقول : « إن قوى الإنسان فوق كل عذاب » .

لكن صلاح النجومى عاد بذهنه إلى القرية : « ماذا تركت هناك ١٩ ! وماذا ألقى هنا ١٩ .. تعاسة بين أعواد القمح وأخرى على نواصى الشوارع وخلف نوافذ من الزجاج .. وتعاسة يعبر عنها صاحبها بالشعر وأخرى يعبر عنها صاحبها بالشتام وأخرى بالتأوه ، وهناك تعاسة يعبر عنها صاحبها بألا يتكلم

.. مثل نيران النجومى .. » .

وقهقهه « صلاح » قهقهة عالية . عجب لها « البدوى » واحمر لها وجهه ، ولكن الشاب عاد فاعتذر ، وأخذ يقص عليه شيئا من وقائع حياته . فرغت علبة السجائر وهما جالسان . وأحس الرجل بنشوة ، أحس أنهلقى شخصا ارتاحت له عينه . وكان الوقت قد تقدم ، الساعة الآن تدنو من الحادية عشرة ، بقى على منتصف الليل ساعة ، فقام الرجل فى صمت وأقفل أبواب الحجرات وقال مداعبا لصلاح :

— هكذا أمرنى .. حتى لا تسرق أسرار المجلة .. مع أننى آخذ كل ليلة أسرارها معى (وأشار إلى رأس نفسه) . وأطفأ الأنوار وأوصد الباب بالمفتاح وخرج .

اخترقا الحوش المقمر . وذابت نوعا ما مع مرور الوقت رائحة الكيوسين والورق التى شمها صلاح وهو داخل . ثم لاقاهما شارع محمد على ببواكيه الغامضة والترام خلف الترام فى طريقه إلى المخزن . ولم يكن فى ذهن أى منهما إلى أين يتجه . لكن صلاح النجومى قال لصاحبه عندما وصلا إلى رأس شارع حسنن الأكبر :

— تفضل معى .. فأنا أسكن هنا ..

فما كان من زميله إلا أن قبض على كفه وقال له برجاء صادق لا كلفة فيه وهو يرفع إليه رأسه لأنه كان إلى جواره بادى القصر :

— تعال أنت .. أرجوك .. لترى بيتى ..

رد صلاح فى تحفظ :

— إن من فيه قد نام .. لا داعى للقلق .. مرة أخرى ..

— لا ينامون قبل أن أعود .. الكل هناك بانتظارى .. وسترى الجميع ..
— هل تركب !؟ ..

ضحك الرجل ضحكة قصيرة جدا كأنها شهقة .

— نركب !؟ . لم يحن الوقت بعد .. لم يأت دورنا فى الركوب يا بنى ..
بيتى قريب ..

شارع الخليج يتلوى بهما .. ما له خطط معوجا هكذا !؟ . قالوا إنه كان
ترعة وردمت .. لكن ما لهم تركوه فى اعوجاج ترعة شقت طريقها بنفسها ؟
النور فيه خافت لتباعد المصاييح .. ليس على جانب من جوانبه بيت جديد ..
روائح القاهرة بذكريات كثيرة تملأ أنف البدوى .. وهو ماش مع صلاح
النجومى .. تحت إبط الرجل عصا رفيعة أثيقة من الممكن أن يتوكأ عليها وإن
كانت قصيرة .. عصا تبحث عن « مايسترو » ضاع .. وصلاح قد وضع
كفيه الاثنتين فى جيبي بنطلونه .. وكلما سطعت الأنوار فى بقعة من الشارع
حملك كلا الرجلين فى وجه الآخر ، كان البدوى يحكى عن أشياء فى طفولته
.. يذكر يوم دخل مع والديه أرض مصر .. سحته كعربى من حدود تركيا
أو تركى من حدود بلاد العرب .. تعلم الإنجليزية فى الصغر من لسان أبيه
ومربيته .. يذكر أنه كان يسخر من (مربيته) فيخفى معطفها الأبيض فى
حظائر الأرناب إذا ما قست عليه . وكان أبوه ضابطا متقاعدا .. يمشى بخلاء
على رجل من صنع الله وأخرى من الخشب .. وتخلعت أسنانه مبكرا فركب
طاقم أسنان كان يعطره بروح النعناع . لذلك فإن البدوى السيد يقول الآن
مداعبا لصلاح النجومى وهما فى ظلام شارع الخليج :

— انظر إلى سلامة أسنانى ، من خوفى مما لحق أبى ترائى معتنيا بها . وانظر
إلى عصاى . من خوفى أيضا .. أحمل معى رجلا احتياطية ..

ولما ضحك صلاح استطرد الرجل في وقار أكبر من سنه ، وقد كان منذ هنيهة في طفولة حقيقية :

— هل تعتقد أن حياة هذا العصر فيها ضمان ، قل لى .. من هذا الذى سيعطيك الضمان .. فرد ؟ لا .. مجموعة ؟. الدولة بحالتها الراهنة ؟ لا .. أنت نفسك قادر على أن تعطى نفسك الضمان ؟. لا .. فليس شئ يضمن نفسه فى الدنيا إلا الذهب حين يتحول إلى .. حب .. أما إذا تحول الحب إلى ذهب فعلى الاثنين لعنة الله .. هانحن أولاء قد وصلنا . هل أتعبك المشى ؟ إنه رياضة جيدة إلا فى حالة واحدة . حالة ما إذا كانت المعدة خالية من الطعام ..

وجم صلاح ولم يرد .. وصلا فى شارع الخليج إلى ورش السكة الحديد خلف حى المنيرة أفقر بقعة فى الشارع فخرجوا إلى بيت الرجل . لم يكن موقعه أشد إنصافا من (موقع) ساكنه .. الباب فى مستوى الحوش الضيق . ومن الغريب أن يهبط الداخل أربع درجات إلى أسفل بعد أن يفتح باب الشقة .. والحوش مظلم .. والسلم ممتد إلى أعلى فى عناء .. مظلم حتى فى النهار .. أولى درجاته على مقربة شديدة من باب السلامك الذى يفتح الرجل بابه الآن . وصلاح النجومى يلهث فى صمت لهثانا معنويا .. أين السعة التى عاش فيها ؟ .. الحقول والدور والدواوين وحتى المقابر . مقبرة أبيه من الممكن أن يبنى على مساحتها أربعة بيوت . كان شاردا والمفتاح يدور فى الباب ولا يفتح .. وأخيرا انتبه صلاح .. وسأل :

— القفل فاسد ؟

— لا .. ربما المفتاح هو الفاسد ..

— أنت تحمل مفتاحين يا سيدى أظن ذلك ..

(فتذكر الرجل مفتاح المجلة) .

وضحك الرجل فى شبه سعادة .. قليلو الأخطاء يضحكون من أخطائهم

كشىء لم يعتادوه وكثيرو الأخطاء يضحكون لأنهم تعودوا . وأخرج الرجل المفتاح الحقيقى وفتح الباب .. وحذر صلاح من أنه سينزل .. « أمامك أربع درجات لاحظها فى الظلام » ..

كانت كل كلمة فى هذه الليلة تحمل للشباب معانى غريبة . كل الأشياء حافلة بالرموز .. الحارات والشوارع والكلمات وحتى أسنة المآذن ، والروائح والأصوات .. أحس أنه دخل إلى عالم يحتاج فيه إلى (مترجم) ولعل البدوى هذا هو السبب فى كل ما أحس به ..

وسبقه ليشعل مصباحا .. فى حجرة يمكن أن يستقبل فيها ضيوفه واقعة إلى اليمين . هى الوحيدة التى تملك شبكا على حارة ، وصالة المسكن واسعة بالنسبة للحجرة يصب فيها مسقط البيت .. بنوره وقمامته وقطع الغسيل .. ولعب الأطفال وفضلاتهم .. فوق أصص مختلفة الأنواع من صبار مصرى .. وقطعة من الرخام موسدة على الأرض كأنها نزلت من مقبرة إيطالية ، لم يكن هناك شىء مكتوب عليها ..

وقال صاحب المسكن للضيف : أرجوك أن تخافت بصوتك حتى لا يستيقظوا إنهم فى الغرف الداخلية .

وفعل الضيف وقد أحس بالحرج والندم معا . لكنه عندما دخل الحجرة اليمنى رأى تناقضا بين القول والواقع .. فهناك مكتب صغير لكنه أنيق يبدو غريبا للغاية بين بقية الأثاث ، يتدلى فوقه مصباح قوى النور ، وفى الحجرة سرير رخيص ، وكب منثورة ، وعلى أرضية الشبايك مجلات وأوراق وغبار . وهناك منضدة كبيرة جنب السرير عليها قوارير ذات روائح لا تفهم .. والأرض مفروشة نصفها ببساط ناصل أحمر اللون ونصفها الآخر بالحصير الملون . وليس هناك ما يدل على أن يدا هنا تنظف مما جعل صلاح يستتج أن هذه الحجرة محرمة على غير رب البيت ..

— ٦٢ —

وجلسا يدخنان مرة أخرى ، وفجأة — بلا مقدمات — سأل المضيف ضيفه :

— من الذى أرسلك للأستاذ التهامي صاحب المجلة ؟
فلما أخبره قال :

— هل يعرفه ؟ أظن لا . وأظن أنك عرفت عنه اليوم شيئا ، هو رجل يتمتع بذكاء نادر .. وهو لذكائه لا ينتمى إلى حزب . إنه ينتمى إلى مصالحه فقط . وهو يكتب المقال السياسى بقلمه حقيقة . لكن هذا المقال يدور عليه أموالا ليست من التوزيع لكن من المقال نفسه .. حتى ولو كانت المجلة من نسخة واحدة ..
— لست أفهم شيئا ..

تنحنح الرجل وتلفت حوله ثم ابتسم قائلا :
— عندما يكون الصدق ميثوسا منه يلبس الكذب ألوانا زاهية . ماذا أقول لشاب مثلك ؟ .. ترك « الأطراف » فى الريف وسعى نحو « القلب » فى العاصمة .. جيلكم لا بد أن يتبوأ مكانه .. صحيح كنت تسألنى ونحن فى باب الخلق : « هل نركب ؟ فقلت لك إن الوقت لم يحن بعد » .. عندما يركب جيلكم ربما يفعل ما عجزنا عنه ..
— لست فاهما . (قالها فى شبه ضيق) .

— ستفهم قليلا قليلا .. لا بد أنك ستدفع ثمن الفهم .. كما دفعت أنا ودفع غبرى .. انتميت إلى الأحزاب العلنية والجمعيات السرية .. فرأيت الكل يكذبون . هل تعرف ما السبب .. (هى هى) بسيط جدا . هو أن من كذب فى السر كذب فى العلن .. فقررت أن أعيش هكذا .. غير أنى أو من بأن حزبا واحدا هو الذى يخلص البلد . هو حزب الفلاح .. هل تسمع عنه ؟ إنه مخيف ولو أنه لم يزد على كونه لافتة ..

— الفلاحون لا يعرفون شيئا عنه . وكذلك أنا ! (وببساطة) هل هذا الحزب موجود فى قرية ما ومهمته إصلاح الأرض ؟ أو أنه موجود فى أحد القصور هنا ؟
ضحك الأستاذ البدوى :

— موجود فى المدينة ومهمته إصلاح الفلاح نفسه (وضحك) عن طريق .. آ .. عن طريق .. (وسكت) .. أقول لك هذا فيما بعد . المهم أننا محتاجون إلى حزب لا يحكم .. رئيسه (روح) قبل أن يكون (سلطة) .. وروحانيته تجتذب إليها كل ما يضىء فيندمج فيها .. ويصبح جزءا منها فتزايد هى وتكبر كما تكبر العقائد بأداء الشعائر .. هل تعتقد أن كل ما نسب إلى لقمان الحكيم أو أنى نواس أو اللص الشريف كله حقائق ؟ .. كل حكمة من صنع الحكماء المجهولين نسبت إلى لقمان ، وكل ضربة شجاعة نسبت إلى عترة ، وكذلك الباقون .. لكن قل لى هل أعجبك صاحب المجلة ؟ ..
— أود أن أخوض التجربة بأى ثمن .. ولو مع .. لص ..
— أووه (ضاحكا) لقد وجدته اليوم .. قم أفرجك على بيتى ..

وجره من يده ..

اخترقا الصالة والمسقط الآن إلى اليمين ، فيه الصبار المصرى والرخام الإيطالى وأشياء تحتاج إلى كنس .. وفى مواجهة حجرة الجلوس حجرة أخرى جنب دورة المياه ، ذهل صلاح والأستاذ البدوى يفتحها له .. وعندما أضاء النور بدت له خالية من الناس .. فيها ركام غير منظم من صور زيتية لم يفرغ منها . وأدوات مصنوعة من القش .. ومناشير .. وصناديق .. حجرة لرجل يعمل كل شئ .. وفيها ماكينة خياطة موضوعة على كرسى .. وليس فيها أثر لإنسان قط .. قال صلاح فى نفسه وقد فتح عينيه : « ما هذا ؟ » .. ثم هتف ما كان فى سره فقال صاحب البيت : هذه أسرتى .. هذه الأشياء هى التى

تنتظر عودتي كل ليلة . أسهر في هذه الحجرة لأرسم أو أصنع أشياء من القش أو أخيط بعض الملابس . أما الحجرة الأخرى فهي مكان للقراءة والنوم .. ولم تبق إذن إلا دورة المياه .. عيشة بسيطة .. ما رأيك فيها ؟!

— ألا تشعر بالوحدة ؟!

— الوحدة ؟! . الوحدة معناها أن تلتقي بنفسك وجها لوجه .. وليس عندي وقت لذلك .. أنا أعمل كل شيء حتى أستخرج العطور . وأتعلم الحفر على الرخام وأترجم وأقول الشعر وأكتب مقالات كثيرة للسيد التهامي وأصحح التجارب وأعرف عددا من الحكام ، أجدد الإنجليزية وأركب العقاقير بطريقة الطب القديم . وقرأت عن الفلك والطب الحديث ، وأسألني عن الفلاسفة وعن أسرار السياسة ، ووازنت بين الأديان حتى أحبت ديني ، وأنواع الزهور كلها أعرفها بالاسم ، وكل هذه المعارف .. (وقهقهه) تزيد رزقي ضيقا .. حتى فكرت في أن أتغلب على ضيق الرزق بأخذ (شهادة) لأنني بلا شهادات .. غير أنني عجزت عن هذا الشيء ، لماذا ؟! لا أدري .. (ومط شفتيه وقلب كفيه) .

أحسن صلاح النجومى بالدوخة وهما يعبران الصالة عائدين من جديد إلى حجرة الاستقبال . وعندما جلسا أحسن الشاب أن الرجل قد أنهك . بدا في سن الخمسين . ولما خلع نظارته بدت عيناه الزرقاوان الفاتحتان في ضعف نبات لا يرى الشمس ، وشعره المفروق في أناقة طبيعية ناشئة من نعومة الشعر نفسه أضفى عليه مسحة جديدة في نظر الضيف .. وساد صمت يكاد يكون طويلا . كل منهما فيه منصرف إلى أفكاره . قال صلاح بعده بصوت متلجلج : « على كل .. أنا .. أحمل شهادة .. ممكن أن أتوظف بها .. لكن أنت تعرف الآن ما أحب .. أنا .. أملك أرضا .. ممكن أن أعتبر غنيا على شرط أن أنجح في زراعة ما أملك . لكن هذا غير الواقع . (وضحك) ولما عجزت عن

حرث الريف .. جئت للخبية .. أحرث المدينة » .

رد البدوى السيد فى صوت باسم :

— لا تياس .. إن كنت تحب العمل مع الأستاذ التهامى .. معى .. فتأكد أن ذلك ممكن غير أنه لا بد من أن (يطعمك) ضد الطموح .. وضد المطامع .. هناك أربطة يلفونها بقسوة حول حماسة الشاب فإذا بها تتحول إلى مسالة ومن المسالة إلى الخضوع ومن الخضوع إلى الدل ..

سكت الحديث وزاد الليل صمتا .. ليس إلا صفير قطارات حلوان فى رحلتها الأخيرة .. والروائح غير المفهومة من قوارير البدوى . وغلالة من دخان التبغ . وصاحب المسكن محتضن ركبته بين يديه يخلق فى هدوء من شبع فكرا . وذكريات قريته لا تزال ماثلة فى ذهن صلاح .. زحفت إليه المخاوف وطوقته . وذكر ليلة مات أبوه وهو يسعى فى الظلام بملابس الحارس فى فرقة التمثيل . وجموع الفلاحين العائدة فى كمد إلى مراقدهم على السطوح . وحزب الفلاحين الذى تحدث عنه البدوى السيد ، واللافتة التى خاف منها ناس مثل كلمة هتاف لم يحدها الصدق لكن شفة نطقت بها . وتذكر صلاح أصوات الجراررات وخوار الثيران .. وأصوات البواخر فى قنال السويس . وليالى الهرب . والحب فى المنصورة . والأساطير التى رسمها خيال شاب يجد المال . وصور القاهرة . وأحس صلاح أن الناس لهم تعريف آخر .. فليس الناس هم الأشباح التى تقع عليهم عيوننا مهما اختلفت بزاتهم ومظاهرهم . إنما الناس فى الحقيقة يتلخصون فى عبارة بسيطة لا يدري صلاح أين قرأها : « عندما تضع رأسك على المخذة قبل النوم ستعرف بالضبط ما وزنك وما تساوى إذا فكرت فيما أخذت وما أعطيت . وإذا ما حاولت أن تحكم بلا تحيز — مجرد أنك موجود — ما إذا كنت راغبا حقا فى استئناف الحياة بمطلق إرادتك عند الصباح ١٩ . » ..

(للزمن بقية)

نفخ صلاح النجومى كشاب يحمل الهم الحقيقى .. سمعه البدوى ، فتبسم له .. كانت الساعة قد بلغت الواحدة بعد منتصف الليل . فظهر الشاب فى ساعة معصمه واستأذن . ودعه الرجل حتى الباب ، بعد أن اتفق معه على أن يلقاه فى دار المجلة صباحا بصرف النظر عن الأستاذ التهامى . فشكر ذلك له . ثم مضى .

لم تكن هناك مواصلات .. كان عليه أن يعود فى نفس الطريق .. شارع الخليج الممتد المتعرج . ذو القناديل الشحيحة . وأصوات كان يسمعها فى بعض الحجرات القريبة النوافذ من الأرض .. سكن الليل .. أصوات فيها أنين .. كل يؤوله بما يشتهى ..

وفجأة أحس صلاح النجومى بشيء دهش له ، أحس أنه جائع . وتذكر أنه لم يذق طعاما منذ الظهيرة . وفجأة تذكر أن مضيفه لم يذق طعاما فى حضوره ولم يلمح باسم الطعام طوال السهرة . كانوا يدخنون فقط . وأحس أنه جائع حقاً فلما وصل إلى ميدان باب الخلق لم يجد شيئاً ذا بال . إلا بقايا بلح حامض مع بائع نائم جنب عربة وليس عليها مصباح كالعادة . أخذ منه ما أراد ، ولما دخل شقته الصغيرة لأول مرة يحمل طعامه بين يديه أحس بشعور من التعاطف .. مع من ؟! تعاطف عام . بحث عن أحد يقبله . ولما لم يجد يبحث عن شيء .. لم يجد إلا قطع الأثاث وصورة لأسرته .. لم يحس أن أحدا فيهم يدفعه إلى قبلة .. فدار فى الحجرة والطعام الشحيح موضوع على منضدة . وعند ذلك رأى صورته فى المرآة .. مرآة الصوان . ولسبب لا يدريه قبل صورته فى المرآة ثم ابتسم ..

كأنما أحس الشاب عندما نضجت نفسه بالألم من أجل إنسان أو الإنسان . أن نفسه شيء منفصل عنه وأن الحنين الذى يعانيه نحو أن يقبل الآن أحدا إنما هو اتجاه مبهم متكرر نحو معانقته الإنسان المطلق فى كل مكان من وطنه ..

في ضحا اليوم التالي كان يسعى نحو دار المجلة .. به شوق عميق غامض نحو أن يفعل شيئا ولو هوى في جب . أن يفعل شيئا من أجل ناس لا يعرفهم فيهم « محمد الجندي » الذي ظل يحلم طوال الليلة الماضية بكلامه ودعاباته .. وحكاياته عن السكين المسحورة القادرة على قطع رعوس العفاريت والتي كان يحملها فارس الليل . أيام كان صلاح صغيرا ..

لم يمتلئ أنفه في هذا الضحا برائحة الكيوسين والورق . فقد كان حوش البيت مرشوشا .. وهو واسع وغير مبسط . ودخل . الأستاذ البدوي على مكتبه مثلما رآه ليلة أمس . لكنه شعر أن دهرًا طويلا قد انقضى منذ ليلة البارحة وأن علاقة في طول العمر كله تربط بينهما . في يده اليمنى بقية قلم وفي يده اليسرى بقية سيجارة وعلى وجهه بقايا تفكير . وقابله بترحاب سهل لكنه يلمس القلب :

— أهلا .. اجلس وكلم نفسك حتى أفرغ لك ..

وانهمك كأن أحدا ليس أمامه . وأخذ الشاب يحملق فيه . جبين ذكي ووجه يميل اليوم إلى الشحوب . والذقن مخلوق في أناقة . والعمل يدل على أنه مستعجل . ثم انتفض ودخل حيث كان الأستاذ التهامي هناك في الداخل . وطال بقاؤه . وأحس صلاح بالقلق فأخذ يتسلى بأفكاره كأنها أوراق اللعب . حتى سمع وقع خطوات عائدة إليه .

جلس البدوي خلف المكتب وقال لصلاح وهو يميل عليه :

— ما رأيك يا عم ؟ لقد قبل الأستاذ أن تكون معنا هنا .. بلا مرتب طبعاً .. تحت التمرين .

فضحك الشاب بلا قصد . فهو يفهم منذ أمس من هو صاحب المجلة . لكن الرجل عاجله بجذ وابتسامة صادقة :

— لقد صارحتك أمس فكيف أغشك اليوم .. افهم .. ستتمرن على أشياء كثيرة منها الصحافة .. ومعاملة الناس كذلك .. وستكتب .. وتصصح تجارب .. وربما نظفت حجرتك بنفسك .. ومن هذا الباب دخل الناجحون والفاشلون معا .. وكلنا في هذا العالم أسماء مكتوبة في « قائمة انتظار » .. وعلى كل .. لك رأيك .. فأنت لن تأخذ نقوداً .. و .. أنا أظن أنها ليست مهمة جداً . أنا أتكلم عن نفسي .. وفي دار الكتب القريبة منا وظائف لثلث إذا لم ترغب في هذا العمل .. لكنني فهمت ليلة أمس ماذا تريد ..

وسكت .. ونظر صلاح إلى الأرض ولم يكن هناك ما يسمع إلا صوت الرجل وهو ينفخ الهواء من أنفه . أخرج الشاب سجائره وقدمها إليه وأشعل كل سيجارة لم يلبث أن قال الرجل بعدها :

— ما رأيك ؟ .. إنه في انتظارك في الداخل ..

— أنا ؟ ..

— نعم .. لكي يكلمك بنفسه .

وقاده زميله نحو الحجرة . كان يشعر وهو يسعى إلى هناك أنه سيشهد أعظم تجربة في حياته . ودخل .

ملاً أنفه تواعب سيجار في فم الأستاذ كان في طول أنفه مرتين ، وأشار إليه بالجلوس ففعل . وظل كل منهما ينظر إلى الآخر حتى انهزمت نظرات صلاح أمام عينيْن ضيقتيْن مائجتين بالشروط :

— عرفت أخيراً أنك ترى في المجلة موظفا واحدا .. والفراش مريض .. كانت جيمه معطشة وقافه مقعرة وسينه مهموسة .. وتذكر صلاح طريقة نطقه لكلمة (كلاسيك) وتلخيصه إياها . لكنه في مجموعة شيء متوثب يحمل على التقدير أو الخوف .. واستطرد الأستاذ :

— لقد عملت وحدى أشياء عظيمة .. لا تنس أن الوحدة من صفات الله .. أحيانا تكون كالأ .. وأنا هنا مثل معصرة الزيت .. هل تعرفها ؟
هز صلاح رأسه .. واستطرد الرجل :

— أنا هنا أدرب العفاريت .. وأعصر الزيت بكفى بلا معصرة .. ربما كنت قاسيا لكن قسوة الفأس هي التي تشكل التمثال .. فعليك أن تتحمل .. ومن يدري ؟ ربما جاء يوم تقول فيه إن لقائي كان نقطة تحول في حياتك .
— شكرا .. أ .. أرجو ذلك ..

— شكرا .. يمكن أن تذهب وتبدأ عملك مع زميلك .. في حفظ الله ..
خرج صلاح من الحجرة إلى حجرة ثم إلى الصالة ثم إلى حجرة .. إلى حيث كان يجلس البدوى .. علبة السجائر أمامه وهو يدخن منها في هدوء .. وعاد صلاح فجلس في حالة غير مفهومة من الشعور . لكنه أحس أن شيئا هاما قد وقع على كل حال ربما كان له وربما كان عليه ..

وابتسم البدوى في تودد .. ونظراته العطوفة من وراء النظارة توحى الآن بطفولة :

— كيف وجدت الحال ؟

— كما وصفته لى ..

وسكت .. تذكر أشياء غريبة .. تذكر أنه شاب ضال .. وسر ذلك أن الواقع غير مقنع له .. ويجد المال ولكنه يكره أن يكون أداة يستمر بها التنفس

.. يعنى الحياة . وهو كمن يعانى مرضا غريبا يقول الناس عنه إنه عادى . غير أنه يشعر كأن العصر محتاج إليه (شخصا) وهو إن لم يفعل شيئا بقيت كل الأعمال فيه مثل رسائل بلا عناوين تتكدس وتضيع .

وطال السكوت وكاد يضحك من نفسه .. فهتف فى شبه صرخة موجهة سؤاله لزميله الذى أحبه جدا فى هذه اللحظة :

— هل الأعمال التافهة يمكن أن تكون بداية فى حياة رجل عظيم ؟
انفض البدوى وعض شفته وأخذ اهتمام وعطف .. وأحسن صلاح أن شيئا غير مقصود — كأنه همس داخلى — أفلت منه فخجل ، احمر وجه الشاب الجميل فانبعثت شفقة جديدة فى قلب البدوى .. كانت التعاسة المشتركة تجمعهما .. وإن اختلف النوع .. وشعر الرجل أنه فى حاجة إلى نفس يأنس لها وأحسن الشاب أنه فى حاجة إلى من يرشده .

وكان صلاح بطبعه مفتونا بحياة طائفتين من الناس ، هما فى الحقيقة أطراف كل مجتمع فى الدنيا : « البسطاء والعظماء » .. كان يحس أن الإنسانية بصفائها ورقتها فى البسطاء إن فهمناهم .. وكان يحس أن الإنسانية حين تتحول إلى شيء دقيق جدا وعظيم جدا هو عصا المايسترو .. تكون فى العظماء .

فالعصا التى تقود خطا العميان (فى أصغر صورة) هى نفس العصا التى تقود الجموع فى التاريخ فى يد العظماء (فى أكبر صورة) ..

وأفاق صلاح على رد زميله بتعطف وخوف عليه :

— لا تستسخر سؤالك .. أكثر عظماء الدنيا اشتغلوا بأعمال تافهة فى أول الأمر ..

رد كأنه يدافع عن نفسه لكن فى خجل كثير ..

— أعرف ذلك .. أعرف جان جاك روسو الذى علق تولستوى صورته

— ٧١ —

على صدره .. وغيره .. من الـ ..
 رد البدوى فى همس خافت جدا وهو يختلس النظر نحو الباب الذى ربما
 يظهر فيه صاحب المجلة :
 — لا تدافع عن نفسك هكذا .. أنا شخصيا أحس نفس إحساسك ..
 وأكثر .. أنا عظيم فعلا ..
 همس كأنه يختلسها من نفسه ..
 فغر صلاح فمه واستطرد البدوى :
 — غدا ترى كل ما يخطه قلمى .. تراه بنفسك ..
 وعندئذ سمعا وقع أقدام آتية من الداخل متقاربة مما يدل على السرعة وقصر
 القامة . وكان الأستاذ خارجا .. وعندما وصل إزاءهما حياهما برفع يده
 قليلا ..
 نهض الرجلان ، وامتلا أنفاهما برائحة التبغ .. ثم سمعا فى الحوش محرك
 سيارة .. فعرفا أنه قد انصرف ..
 جلسا يتهدان معا كأنهما وضعا حملا مشتركا . ومط البدوى شفته ثم
 استعادها ومصمص . ونفخ من أنفه ، وسأل :
 — كم الساعة الآن ؟
 — الواحدة بعد الظهر ..
 — حسن .. يمكن أن تأتى معى الآن لنذهب إلى المطبعة .. وقبل ذلك
 سنمر على الساعاتى لأخذ ساعتى التى تصلح .. وفى المطبعة أريك ماذا
 ستعمل وكيف .. حيث تشرف على التدريس والتجليد وتكون حلقة اتصال
 بين المجلة والمطبعة وتجربى وتعرف سر المهنة . فكل مهنة لكى تعرف تعاشر
 ولا توصف . وعما قريب ستكون « ولد » .. وربما لمعت .. والله أعلم ..

تعال .. نتوكل ..

كان خفيف الظل في هذه اللحظات .. البدوى السيد هذا .. خطف عصاه القصيرة الأنيقة ووضعها تحت إبطه .. وتحت إبطه الآخر صلاح .. أقفلا باب المجلة وسارا يسعيان .. كانت عقود بواكى شارع محمد على على مقربة من دار الكتب تشيع في الجو الحار برودة منعشة مثل رائحة حقول سقاها الماء . ولم يدر صلاح كيف بدا زميله خفيف الحركة هكذا كان يمشی بسرعة مع أنه أقصر بكثير من الشاب .. ويتنبأ بما سيجري له : « ستكون شيئا .. عليك فقط ألا تتضايق .. انتظر .. هنا دكان الساعاتى لاأخذ ساعتى .. » .

ودخلا معا .. وأخذ الساعة ثم أخذ يفتش في جيوبه ، ومن نظرته أحس صلاح أنه لا نقود معه ، فدفع له . ثم مشيا دون أن يعلق الرجل . وبعد قليل قال الرجل في دعابة لكن بصوت مهموم :

— أستاذ صلاح .. (هى هى هى) أنا لا زلت مصمما على أنهم لو سموني السيد البدوى بدل البدوى السيد لربما تغير الموقف .. لا تضحك .. فبعض الخرافات لا يتخلص منها المفكرون ..

وظل يشهق بالضحك وحده .. في اللحظات التى سيج فيها صلاح في نشوة من كلمة « أستاذ » ومن إحساس ليس فيه غبن ولا محابة ولا تحريف يعذوبة هذه الصحبة أيا كانت .. ثم ما لبث صلاح أن ضحك وحده هو الآخر فنظر إليه الرجل يسأله فقال له :

— كلما ذكرت ليلة وفاة أبى ضحككت . (وقص عليه القصة) لكن قمة الأسى والسرور تكون عندما أذكر أن ثياب أحد حراس فرقة التمثيل معلقة الآن في صوان في حجرى في القرية .. كم أود أن أحضرها وأسلمها إلى أصحابها ..

— ٧٣ —

— نذهب معا .. نحن الآن على مقربة من المطبعة لكن لا ينبغي أن نذهب قبل تناول الغداء فقد يطول بك العمل ..

كان البدوى ناحية المحلات وصلاحي إلى الناحية الأخرى .. فانحرف البدوى به فجأة إلى باب مطعم .. رائحة الشواء تملؤه وفيه قلة من الناس . وعلى المناضد مفارش بيضاء ودوارق ماء مثلج وأزهار . قصدوا إلى مائدة في النهاية في ركن مظلم . وجلس البدوى بأناقة وشهية وصدق وطلب شواء لاثنين ..

ولم يعد صلاح بعد أن جلس في المكان برهة يتأمل فيه شيئاً إلا هذه الظاهرة . ظاهرة أن يفعل زميله كل شيء بطمأنينة هكذا حتى ولو كان صلاح يدفع ، لكنه عندما أتى الشواء وأخذوا يأكلان شعر صلاح بسعادة لا توصف حين رأى زميله يأكل بشهية وجوع وأمان .

وعلى المائدة قال له شعرا بعضه مروي وبعضه من تأليفه . ثم بعض النكت . وعرج على تاريخ حياته مرة أخرى . وحكى له عن أسرار يعرفها بحكم مهنته من عيوب المشهورين . وحدثه عن الزوجة التي يتمناها . حتى سأله صلاح :

— هل يعطيك الأستاذ التهامي مرتبا يكفيك يا صديقي ؟!

فرد ضاحكا :

— إذا بعنا قبضنا . وإذا لم نبع قبضنا .. يعنى متنا ..

— ولماذا لم تتحول إلى مجلة أخرى ؟ ..

قال بعد صمت كاد يكون طويلا :

— عندما يصبح (الفكر) تجارة تصبح الأسواق كلها متساوية .

— ماذا تعنى ؟!

— أعنى أن التجارة في (الفكر) مثل التجارة في (الإنسان) . كل أسواق الرقيق سواء وليس هناك نخاس مثالي ونخاس منحط .. لذلك فلأبقى حيث أنا . والأستاذ التهامي عرفناه .. (وصمت) .. ومع ذلك فلا بد أن تتغير الدنيا ..

— كنت في الريف أشعر أن كل شيء في المدينة يوزن بميزان أدق ، فلما رأيتك عجبت . وقلت في نفسي في لحظة خوف .. إنني جئت من خييتي (أحترث المدينة) .. وسهرت أسأل نفسي : هل لو أني أملك مجلة أعمل ما يعملها هؤلاء ؟

— ربما لا .. وأنا أشعر أن هذه الفكرة تراودك .. لكن حرام أن تفعل ذلك .. إن وجهك يدل على أنك كثير الأحلام وجرىء والضحايا من هذا النوع أكثر من غيره .. عليك الآن أن تتعلم . تعلم فقط .. الأطباق أمامهم ليست خالية تماما لكنهما كفا عن الأكل .. والبدوى بعد الشبع بدا أكثر وداعة .. يدخن من علبة صلاح بطريقته المألوفة .. ببساطة لا يذكر معها كلمة (ملكية) . وأحس صلاح نحوه بأبوة .. إحساس الكبير نحو الصغير لا العكس . ورويدا رويدا ولت بقية الكلفة فزاد وزن الصداقة . ودفع صلاح . ثم اتجها إلى المطبعة .

* * *

صحف هذه الأيام تتكلم كثيرا عن حزب الفلاح لكن بشيء من السخرية ..

وجاء ذكره في قرية النجومى في مجلس ضم محمد الجندى فسمع من يقول إنهم يدعون أن أعضاء هذا الحزب سيوزعون على الفلاحين أحذية وسراويل . فقال الرجل العجوز : « المعقول أن يدعوا أنهم سيوزعون على أولادكم أقلاما .. المشكلة في وجود القلم لا في شيء آخر » .. ثم سرح كأنما

يسأل نفسه : « يا ترى أين أرضك يا سى صلاح ؟ » .. وتنهذ . وقال أحد من حوله ردا على تنهذه : أنت بيننا مثل الحكيم لقمان يا عم محمد لكن حكمتك أكثر من فقرك . وفقرك أكثر من حكمتك » .. وضحك الباقون .. ورد الرجل وهو واضح كفيه على خديه كمن يرتل القرآن ..

رد بحماسة وهو يهز جسمه :

— أصلكم بهائم .. اليد التي تمسك القلم تحسن كل شيء في الدنيا ..

رد فتى ضاحك :

— حتى مسك الفأس يا عم محمد ؟

— حتى مسك الفأس يا غبي .. هل هناك أسهل من تركيب حدوة

لحمار ؟ ..

تركية البيطرى لها غير تركيبة الجاهل الذى نراه عندنا كل سوق .. والفرق .. هو .. القلم ..

— ما أخبر صلاح النجومى يا عم محمد ؟

وأحس الرجل كأن أحدا خدش إحساسه نحو ابنه الوحيد العزيز ، واستشعر حرارة وهو يدافع عنه أمام هذا السؤال الذى يبدو بريئا وهو فى الحقيقة خبيث . إنهم يعتبرونه فاشلا . وعندئذ أطرق إلى الأرض كأنه يفتش فيها بعينيه الضعيفتين عن شيء صغير ، ثم استعان بخياله القديم أيام كان قادرا على أن يجعل « الفأر جملا » . كما قال عنه الريفيون وأخذ يتحدث عن صلاح بصوت خافت فيه نبرة أسى وشيء من الخشوع . قريب من سرد ذكرى حب أو ترتيل شيء مقدس :

« هو فى رحاب (الطاهرة) ، قالوا إنه ساكن قريبا منها » .

حاول أن يلمس قبل كل شيء وتر العاطفة ثم استطرد :

— وهو يتعلم مهنة لا نعرفها ولا نفهمها . أحسن من الهندسة والطب . أكون كذابا لو ادعيت أنه سيعود مهندس رى أو طبيب انكلستوما ، أو يبنى

لنا كوبرى . لكنه سيعود بمهنة جديدة .. سيكتب لكم فى الجرايد وكل شكوى تحتها اسم صاحبها وصورته . ويجرى وراءها عند الحكومة . وقد حلف ألا يدخل البلد إلا وهو رجل عظيم . إنه لم يبع أرضه كما سمعت ولكنه يأخذ إيجارها ، من مدة سنة لم يشرف ، لو كانت القلوب توزن مثل القطن والتبن ١٩ . هو فى رحاب « الطاهرة » . ورأيت فى المنام على فرس أبيض ، والفلاحون من حوله فى ملابس من القصب .

وفجأة انبعث ضحك . صفق الشبان وضربوا الأرض بأرجلهم وقهقه الكبار . وحلق الجندى فيهم بذهول يتساءل عن السبب ثم شتمهم : « الجهل نعمة » . وقال شاب بقلنسوة من الكورشييه : « حد لاقى يمسه يا عم محمد ؟ .. هو القصب بيتلبس ١٩ » ..

وعادت ضجة الضحك لوقع النكتة فعاد الرجل يشتم « جهلة .. أيادى لم تمسك القلم طول عمرها .. القصب الذى ليسه سى صلاح ليلة .. » .

ساد ضجيج جديد وضحك .. وتحول المجلس إلى سوقة ..

وقال ذو القلنسوة الكروشيه الفرع بشبابه من جديد :

« آه .. عرفنا يا عم محمد . أصلنا كنا سرحنا فى النوع المخصص للمص » .

قال « محمد الجندى » وهو ينهض من بينهم وينفض التراب عن جلبابه من الخلف تلك النكتة الشهيرة الشائعة فى الريف والتي توحى بتهمة الجهل : « تقرأ زبورك عند مين يا داود ؟ » .

لم يتغير شئ كثير فى حياة صلاح الوظيفية إلا .. أن مر عام وأكثر وكان البدوى طواله شبه عالة عليه . لكن صلاح يسهر عنده معظم الليالى حيث يقضيان معظم الليل فى القراءة أو الحديث . وكان زميله مكشوف التجربة . حتى أدق أسرارهم لم يكن عنده مانع من أن يقصها عليه وربما على غيره . بهدوء

المطمئن . كرجل يحدث نفسه لا أكثر ولا أقل . حتى حوادث الطلبة في المدارس الداخلية أيام كان فيها . لم يجد حرجا في أن يقول إن جمال وجهه بينهم كان مصيبة عليه لولا ستر الله . وينقد له أدب أعظم أديب وأكبر شاعر ، وكان بحكم تربيته يتقن الإنجليزية فسهر يقرأ بها مع صلاح وتحول بيته البادى القماءة والذى يمثل برج بابل إلى مدرسة بالنسبة لصلاح . وكانا يترجمان معا قصصا للمجلة وبعض أحاديث وموضوعات وطرائف . ورآه يكتب شعرا باسم مستعار وينشره في المجلة ويسمع مديح الأشعار لذلك الشاعر المجهول . ورآه يكتب للأستاذ مقاله الافتتاحي كثيرا من الأحيان خصوصا إذا ما شاء أن يهاجم أحدا من كبار السياسيين لأمر يريده لنفسه شخصا . وكان الأستاذ البدوى بارعا في مثل ذلك . ويأخذ صلاح في الموازنة بين وجهه الهادئ الخالى من علامات الادعاء وبين معارفه المتنوعة العجيبة .. ويده . التى هى بلا مال ولا شهادة ..

وخلت حياة البدوى طوال هذا العام من التذمر المادى وقلت طلباته من صاحب المجلة الذى أدرك بفطنة أمثاله أن صلاح النجومى سيكون مصدر رخاء لزميله . ولذلك رحب بصلاح . على أنه كسب من ورائه الكثير . فقد حمل ذات يوم الأكداس المربوطة من المجلة ورصها على عربة لأنه لم يكن معهم نقود للعربجي . فحل الرجلان محله . وضحك البدوى حين كبا الحمار فى الطريق وكانت عصاه تحت إبطه . وعجز الحمار عن الحركة بعدها لأن صاحبه فيما يبدو كان يأكل طعام الحمار . وصخب العربجي وشم لكن البدوى أبدى اقتراحا وسارع بتنفيذه : « تعال يا صلاح . معى .. المكان أصبح قريبا . لنُدفع هذه العربة بحمولتها حتى تصل وليسحب الرجل حماره » .

وكان المشهد مضحكا . لكن حماسة الرجل وشعلة شباب صاحبه جعلهما يفعلان ذلك ، وسارا يتضحكان . وأخذ البدوى يهمس لزميله في الليل في الشارع المؤدى إلى المخزن : « محرون وحمير .. زق زق .. ومع ذلك لا نأخذ أجر هذا ولا ذاك .. هिला هوب .. شد حيلك يا ابن النجومى .. لنساهم بعرقنا المقدس فى بناء عمل مقدس هو الدور الأعلى فى عمارة التهامى .. هिला هوب .. الضحك والبكاء يقطعان النفس فلا تضحك ولا تبك .. زق .. زق .. العمارة تطل على المقياس .. على مقربة من قلعة الممالك القديمة . هिला هوب .. آاه .. فى عين الحمار نظرة عطف .. انظر ممكن أن تراها .. لكن العرجى .. لا .. وصلنا .. اضحك كما تريد أو ابك كما تريد .. » .

* * *

وأحس صلاح بثقل وزنه بعد هذه المدة وكان يدخل إلى دار الكتب ليقراً أو يستعير ويشعر أنه مرتاح . وبدأ يترجم .. كان فى مدرسة خاصة مع هذا الرجل المنسى .. مثل الصبار المصرى والرخام الإيطالى فى صالة شقته تحت مسقط النور . وكلما مرت الأيام زادت المودة . ولم يعد أحدهما يفكر فى المادة كأنما أصبح كل شئ ملكا لهما بالتساوى .. روح كل منهما أخذت من الآخر شطرها وأعطى الثانى من روحه شطرا ، وعندما كان البدوى يرسم وصلاح إلى جواره كان يحدثه عن الرسامين ، وعندما كان يكتب كان يحاكى ويبتكر .. وكان صوته عذبا إذا غنى . فكاد يلحن الموشحات الأندلسية وهو يقرأها من ذاكرته ..

يتكلم عن كل شئ إلا عن المرأة . أما إذا جاء ذكرها فهو يتكلم عنها بما يدل على قلة التجربة .

وبعد السهرات كان صلاح يعود إلى مسكنه .. وأحيانا كان يبيت . وفى

الليالى التى يبيتها ما كانا ينامان حتى الفجر . لا تفرغ الأحاديث . لكن أحاديث السياسة كانت أقل نسبة . أما عندما يؤثر صلاح أن يعود إلى بيته فإنه كان يفعل بعدما تدخل عربات الترام المخزن وتقف خطوط الأوتوبيس القليلة . فيقطع شارع الخليج . يتعرج به ويتلوى . والقناديل شحيحة . وصلاح يستعذب ذلك . سائرا يلقي فكره إلى بعيد . إلى الناس فى القرية .. وإلى ناس مثلهم فى المدينة .. ويحلم .. بأشياء لا تخصى حتى الحب .. لقد نسى . حتى الشعر المكسور والشعر الأصفر . على النهر ، وكوبرى طلحا . منذ أكثر من ثلاث سنوات .

وعندئذ تنهد وخطف بصره نافذة منخفضة يمر بجانبها الآن . والنور ينطفئ فيها حين حاذاها مع ومضة من ضحكة نسوية كأنها مغمورة .. تنهد مرة أخرى .. وهمس كأنه يحدث شريط الترام اللامع الممدود فى شارع الخليج :

— آه ، لقد كبرت ..

٧

« حريق على الربوة » .. إذن فلنحرب . ماذا سيحدث .. الليل يشملني الآن في مسكني وأنا وحدي .. شارع حسن الأكبر ينحدر .. عدت من عند صديقي ماشيا والسماء تهدى رذاذا حملته على رأسي .. « حريق على الربوة » .. الفلاحون يحملون مثل هذا الرذاذ على رؤوسهم وهم يعملون .. يخافون على قلنسواتهم فيضعونها في جيوبهم إذا كانوا شبابا . يتحركون بسرعة من أجل الدفء .. أما قصة « حريق على الربوة » فكانت في قرية من قرى الدقهلية .. ليلة اشتعلت فيها نار كأنها مجوسية منع الناس من إطفائها . كانت مرتفعة .. تأكل شيئا هشاً بشهية حادة .. بيوت الطين بدت كأنها حمراء . في لون دموى تجمعت تحته نساء في جلابيب سوداء طويلة .. ولم يستطع أحد أن يتكلم .. كان هناك شاب واحد يضحك والحريق على الربوة . احترق حمام كثير أبيض اللون قبل أن يسقط .. حمام (دنشواي) صادته نار بندقية ، أما هنا فقد صادته نار مجوسية .. والغربان لم تحترق ليلتها .. أزواجها السوداء تهيم في سماء القرية . والتليفون في دوار العمدة يطلب المركز في إهمال مقصود .. (آلو) ويعقبها نعاس ..

وذهب كثير من الأطفال الذين استيقظوا على الجلبة ليبولوا من الخوف بجوار الجدران أو حظائر الماشية . وكان بول كثير منهم مخلوطا بالدم . والحريق على الربوة .. وجدران المستشفى المتنقل المجدولة من غاب حمصته الشمس كان لذيق الطعم والنار تأكل .. والحادثة تقيد ضد مجهول . وبال الأطفال في

القنوات منذ صباح اليوم التالى كأنهم يحتجون على الحريق بأن ينشروا المرض
بين أنفسهم .. لأن المستشفى كان لعلاج البلهارسيا والإنكلستوما ..
من الذى أشعل النار ١٩.

.....
.....
.....

* * *

ولم ينم صلاح بقية الليل بعد أن كتب هذا .. رقد .. ثم نهض فأشعل النور
ونظر فى مرآة الصوان . وقبل نفسه فيها كعادته حين يشور فرحاً أو حزناً . أوى
إلى الفراش من جديد . مطر فى الخارج وقطة تموء . وصوت ميزاب يدررب
فى الشارع .. همس لنفسه :

« الآن هم يحصدون البطاطس .. إنها فى حقول النجومى الآن . وناس من
فلاحهم يوقدون النار حولها وهم ساهرون .. والآن يستدفع طه أخى
بالصوف والجمر والجسد والشراب الحار . ويتمطى ويسحب الساعة من
تحت المخذة . وربما كان مستغرقاً بعد جهد . وأنا لا أذوق النوم . لماذا لم أكن
مثله ١٩ هل قساة القلوب يتعذبون ١٩ . القسوة قشور على القلب فى صلابة
الحوافر .. إنهم يدوسون كل شئ حتى بواسطة القلوب كأنها سنابك خيل ..
ذلكم هم القساة .. ما الذى تفضله إذا خيرت بين أن تدوس وأن تداس ؟! ..
أنا أفضل البحث عن الدافع إلى مثل هذا الموقف .. عندنا فى القرية فطير ولحم
كثير ومال ونساء فماذا أضجرتنى ١٩.

وكف عن الهمس . وألقى بسمعه إلى دردة الميزاب . وصوت المطر . ألفا
له لحناً جعله يسترخى .. نام .. ولم يحلم .. وكفت القطة عن المواء من برد
الليلة ..
(للزمن بقية)

ليس هذا معقولا .. نعم إنهما الآن في شبه حلم .. البدوى وصلاح النجومى الجالسان في دار المجلة الآن معا يدخنان ويثرثران لأنهما في أول الشهر والمجلة قد صدرت — هما يريان الفراش الذى عاد من مرضه يمشى أمام فتاة في حدود الثلاثين .. عليها « تايور » من الصوف متوسط القيمة لكنه أنيق المظهر .

لم يكن في عينيها السريعتى الحركة الشديديتى السواد تردد . وفي صوتها رنة حيوية . هى تميل إلى الطول ولذلك تلبس حذاء بلا كعب .. نصف جسمها الأعلى يميل إلى الأمام نوعا إذا كانت ماشية . أنفها قصير جذاب مما جعل شفتها العليا ذات اتساع ملحوظ .. شعرها غير مرجل بعناية .. قد يكون هذا دأبها وقد يكون الجو عاصفا ولا مشط معها .. لكنها تحمل حقيبة يد كبيرة نوعا خالية من الأناقة . كل أناقتهما في حاجبيها ومعظم جاذبيتها في عينيها .. وقال الفراش : الست تريد أحدا هنا ..

نظر الرجل والشاب ونهضا واقفين .. وقدا كرسيين .. ابتسمت وهى تهز رأسها في شكر وعدم اهتمام بهذه الفرائض .. ثم جلست وأخذت فورا في فتح حقبيتها وهى تتمتم بالمقطع الأول من كلمة لم تقلها بعد :

« آ .. آ .. آ .. الأستاذ .. » وعندئذ كانت النسخة الجديدة من المجلة أخرجت من الحقيبة . نظر صلاح إلى البدوى والبدوى إلى صلاح لكن بسرعة لم تكد تلاحظها الفتاة لأنها لم تكن بعد قد رفعت إليهما بصرها .. ثم طوت المجلة في يدها ووضعت الحقيبة على كرسي مجاور وحملت في الرجلين .. وعلى ثغرها ابتسامة ألفة .. كأنها لقيتهما من قبل وقالت :

— ممكن أن أقابل الأستاذ التهامى !؟

أحس كلا الرجلين بالضالة .. لأن توقعهما قد خاب ، ولأنه لم يحدث

— ٨٣ —

كثيراً أن جاء إليه هنا أحد مثل هذه . وتكلم البدوى بوقار متزايد بعد أن نفخ الهواء من أنفه في الوقت الذى كان صلاح فيه لا يزال ناظراً إليها :
— ممكن .. اتركى اسمك أو اطلبية غداً أو بعد غد فهو غائب عن القاهرة .
أخذت الفتاة تحول المجلة إلى أسطوانة قطرها يضيق شيئاً فشيئاً ثم
استطردت :

— طيب .. ممكن أن أكلم من ينوب عنه ..
سارع البدوى :
— أنا تفضلى ..

قالت بصراحة وتدفق وكأن شيئاً لا يهمها في الدنيا :
— لم أقرأ هذه المجلة من قبل . لكننى كنت عائدة من السفر فاشترت هذا العدد فوجدتها تقول ما يقال عادة في وقتنا الحاضر خصوصاً بعد أن انتهت الحرب .. وتحولت المشاكل العالمية إلى مشاكل إقليمية ..
لم يفعل الرجلان شيئاً عندما سمعا بدء حديثها إلا أن أشعل كل سيجارة وأخذ يجذب منها أنفاساً بعصبية .. كانا يجذبان النفس معا وينفثان معا كحركة مرتبة .. أما هى فقد فتحت المجلة وصارت تتصفح ورقة ورقة لأنها تفتش عن شيء معين .. واستطردت وهى تأتى بنفس الحركة :
— أكثر ما يثير ضيقى هو أننى أعرف مقدماً ماذا يراد أن يقال إذا شرعت في قراءة .. وعندئذ تصبح القراءة عملاً مملاً .. أو مجرد دفع عجلات القطار أو السيارة للمسافرين .. تعجيل بمرور زمن ثقيل .

قال البدوى في برود شديد :
— إذن أنت تعجبين بالأشياء المثيرة ..
سارعت الفتاة بالرد وبلا أدنى تدمير :

— ٨٤ —

— لا .. لا .. مطلقا .. معذرة إن لم أبين قصدى .. كل ما أحبه أن أجد
أى شىء غير متوقع .. الجديد كل يوم لا يأتى .. إلا فى المعارك الانتخابية
والحزبية وأخبار الفيضانات والمغامرات .. (وضحكت) .

رد صلاح فى هذه المرة :

— أنت رائعة ..

حملت فيه بنظرة فتاة همت أن تقول شيئا ثم عدلت .. وأخيرازمت شفتيها
وهزت رأسها . وضحكت وطوحت بالضحكة رأسها وجذعها .
واستطردت وصوتها أقل ارتفاعا .. أقرب إلى الهمس .. كأنها كبيرة تؤنب
صغيرا على فعلة غير محبوبة ..

— أنتم معذورون .. لعلكم لم تشاهدوا بعد هذا النوع منا .. لأنى قلت
رأى بحرية .. تأخذكم هذه الدهشة ؟ عجيبة ..
قال البدوى بكل ما فيه من تفلسف ووقار وعلى فمه ضحكة استخفاف
لا تكاد تدرك :

— هل كنت تريدین صاحب المجلة من أجل هذا الإطراء العظيم ؟
صمتت قليلا وعلت وجهها سحابة هم خفيفة كمن خاب أمله فى شىء
ثم قالت .:

— اسم الأستاذ ؟ واسم الأستاذ ؟

قال البدوى بنفس الهدوء :

— اسمى .. وأشغل وظيفة نائب رئيس التحرير والأستاذ اسمه .. وهو محرر
بين عدد كبير من المحررين ليس موجودا هنا ..
— عظيم ..

وصمت طويل وإطراق نحو الأرض أميل إلى الهدوء كأنما الحركة فى كل

أعضائها ونظراتها — وحركة يديها عند الكلام استرخت كلها لسبب هام .
ثم أعلنت إفافتها بهزة من رأسها وعادت إليها اليقظة الحادة . التي تحول أحيانا
سمرة الوجه إلى شبه لون لوحته الشمس .. وعادت تتصفح أوراق المجلة وفجأة
قرأت العنوان « حريق على الربوة » ونظرت إليهما .. بان القلق في العيون ..
رجل في الخامسة والأربعين في موقف المعلم وشاب في الحادية والعشرين
أو يزيد كل منهما يتوقع شيئا كان من الغموض بحيث لا يمكن التنبؤ به . وتمنى
صلاح لو أنه كان غائبا هذا اليوم .. قالت الفتاة :

— من صاحب هذا المقال الذى يحمل توقيعا مستعارا ؟ ..

سارع صلاح بكل ما فيه قائلا :

— لا يعرف هذا أحد هنا .. سر هذا عند الله وصاحب المجلة .

. وارتاح البدوى لما حدث .. لأنه وزن الأمر .. كان يعرف أن هذا الذى
كتب شيء جميل .. روح شابة جديدة .. وهو الذى يخس حقه في كل شيء
حتى الشاء .. لكن البدوى غلب في نفسه هذه النزعة إذ طالما غلب أقوى منها
وسأل :

— هل لك رأى فيه ؟

أخذت تتكلم وهى تهز جذعها وبصوت عذب ولغة نادرة :

— لم أقرأ مثل هذا .. إنه صادق وجديد .. وتكلم في شيء يهمنى .. وهو
طبعاً ليس بقلم صاحب المجلة لأننى عرفت روجه من قبل ..

كان صلاح يود بكل ما فيه أن ييوح البدوى لها باسمه . وكان البدوى في
هذه اللحظة مهموما بما هو أغلى .. وهو تأكيد وجوده أمامها أولاً .. وعاد إلى
ذهن صلاح موقف بعض معلمى الموسيقى الذين قرأ عنهم .. حين كان
تلاميذهم يجيدون عزف المقطوعة أمام آبائهم في القصور فيتحول إعجاب

صاحب القصر من المعلم إلى الابن ، فبعد أن يفرغ التلميذ أو التلميذة من العزف نرى المعلم يشرع فوراً في إعادة ذلك على مسمع من الأب وهو لن يأتي بمجديد إلا أن يذكره (بالأصل) ..

بذلك فإن الأستاذ البدوى شرع يتحدث إلى الفتاة عن معلومات قيمة . ولما رآها قادرة على فهمها ارتفع إلى معلومات أقيم . ولما سايرته ارتفع إلى ما لا يمكن فهمه فأخذت تضحك .. بمرح من الصبا الأول . ثم قالت وهى تنظر إلى ساعتها :

— أوه .. كم كنت أود ألا أفارقكم .. لكن ..

عينا صلاح تنظران إليها في توسل .. وهمس راجيا أن تجلس قليلا .. ودخل الفراش بصينية من الخارج عليها ثلاثة فناجيل من السحلب .. تحية غير عادية ..

وشعرت الفتاة بما يعانیه الشاب فركزت عليه اهتمامها .. وكانت في حقيقة الأمر مأخوذة بمظهره الجذاب .. ونظرة الترفع المائجة في عينيه ..

كانت رائحة الشراب تتضوع في المكان مختلطة في هذه اللحظة بشذى عطر .. إذ فتحت حقيبة يدها .. وأشعل البدوى سيجارة فدخل عنصر ثالث من الروائح .. على أن هناك عنصرا رابعا كان هو قلب الشاب . الذى لم تتح له ظروف قلقه منذ قدومه إلى القاهرة أن يغامر في الحب مغامرة حقيقية .. شوق يعرفه القلب الشاب يكاد أن يثبتها على الكرسي لئلا تقوم ، وإعجاب بالطرف الثانى من المؤلف عنده .. ففى قرية النجومى رجال ونساء لا يعرفون الحرية وها هو ذا يرى أمامه فتاة تستطيع أن تقول أى شئ لمن تريد . ولا شك أنها بالتالى « تفعل » ..

و كانت نظرات البدوى إليها لا تخلو من إعجاب وعدم رضا .. أما صلاح

فقد أحس بما يحس به السباح حين يرى البحر بعد أن أمضى في الصحراء
عامين . يريد أن يرتقى ولو بملابسه .

وقطعت هذه الأفكار نبرة فيها شبه عتاب من البدوى :

— كل هذا ولا نعرف اسم الأنسة ؟

— ها .. لكم حق .. انتظروا حتى أفرغ من الفنجان .. ولن أنصرف قبل
أن أقول اسمي ..

وبعد رشفتين رقيقتين كقبل مستعجلة بصوت خفى قالت :

— أنا السيدة أسرار ..

هتف صلاح كأنه حافظ شيئا يكمله :

— اسم على مسمى ..

فتحت فيه عينها المهلكتين :

— ماذا رأيت منى يا أستاذ صلاح ؟ (وظلت تشهق) ..

وظللت ربكة .. ورمى نحوها الشاب بكل إمكانيات نفسه ، لكن في
صمت .. وأحست هي ذلك ، على أنها من النوع الذى لا يعرف ولا يؤلف
بسهولة .. من النوع الذى يرى أن كبوات الحب في عمر الشباب مثل اللثغة
على فم الأطفال .. ما داموا أطفالا فإننا — من أجل لثغتهم — نقبل شفاههم .
أما إذا جاوزت هذا العمر فقد أصبحت عيبا ..

وكانت السيدة أسرار تختلف مع نفسها في تعريف عمر الشباب ..
وكذلك ربما اختلفت في تعريفه مع الناس . فليس الشباب في نظرها فترة تعيش
وحدها منفصلة عن إرادة الإنسان بل هي فترة تعيش مع الإنسان ويعيش هو
معها .. يمدها بطول العمر لكي تمده بطول العمر .. لذلك فنزوات الشباب
لا عمل لها محدد .. فمن امتد شبابه امتدت نزواته ..

وحمل الفراش الأقداح الفارغة وخرج .. وقال صلاح بعد أن شجعتة
عينها :

— سيدة ؟ .. وصغيرة السن ؟ ..

قالت بصراحة عارية :

— كلهم قالوا الى هذا ..

— إذن فكلهم قالوا الحق ..

— أنا وحدي التي أعرف .. (ثم نظرت إلى البدوى) يبدو على الأستاذ
أنه يقول الشعر ..

قال البدوى :

— بأربع لغات ..

قالت بلباقة :

— العامية والعربية .. ثم ؟

فأطرق في حياء .. وتدخل صلاح حتى لا يبقى بم عزل عنها :

— بالعربية والإنجليزية والعامية والحلمنتيشية .. أليس هذا رائعا ؟

— آ .. أوه .. كم أحب ذلك .. إن لى شعرا مكسورا وأريد أستاذًا ..

رد البدوى وقد التهب وجهه في حمرة جذابة :

— أكون سعيدا ..

والتفت إلى صلاح ثم إليها ثم استطرده كمن اتخذ قرارا أخيرا :

— هل تعرفين من كاتب المقال الذى تتحدثين عنه .. إنه هو هذا الشاب ..

هذه اللحظة لا يعرف صلاح ما عمقها ؟ .. حين اتسعت عينها

السوداوان كنافذتين تموجان بما لا يحصى .. وكل سر فيهما يناجيه الآن .

وأحس وليس يدرى لماذا — أن قوى البشر العليا بكل أنواعها مسئولة أمام

نفسها — كقوة من روح الله — عن أن تحرر مثيلاتها من القوى المخدولة التي كتب الحظ عليها أن تعثر . أحس كأن الشارع المضىء في القاهرة مسئول عن الأزقة المظلمة في قرية النجومى .. وأن هاتين العينين المهلكتين في القوة والشخصية والجمال مسئولتان عن كل عين رمداء في قرية النجومى ، وحتى هذا الطيف من العطر الذى لا يزال هائما في الحجره مسئول عن رائحة الأمهات العالقة بهن من الرضاعة وحلب المواشى .. وبالتالي فإن الحقول المضئية لا تقل مسئولية عن الشوارع المضئية لما يخيم على قرية النجومى من ظلام ..

ووثب إليه في هذه اللحظة طيف جميل آخر .. أجمل من طيف اليوم .. هو عم محمد الجندى .. تصوره يحمل فناجيل السحلب ليقدمها للسيدة أسرار .. ماذا كان يقول عندما يرى عينيها .. كان حتما سيعود بخاطره إلى ما مضى ويحكى حكاية الجنيات .. ويعرج بعد قليل إلى العصر .. هذا العصر .. ويضع كفيه مضمومتين على بطنه ويرنخى أهدا به كمن يصلى ، ويقول كما هى عادته عندما يرى شيئا جميلا : « والله هذا حرام على النار .. » .

ثم أفاق صلاح على صوت السيدة أسرار :

— أنت شاب رائع .. سيكون لك مستقبل ..

كاد يبكى .. هذه الكلمة تؤلم .. قيلت له بعد كل فشل .. فكيف تقال اليوم بعد ما يسمى نجاحا .. غير أن نبرة صوتها فعلت به ما يفعل (النوشادر) .. أفاق منها عليها .. وعادته بصورة مكبرة أكثر اندفاعا وحاسا ذكريات المنصورة ، والمشى على النهر .. وكوبرى طلخا .. والشعر الأصفر والشعر المكسور .. والوقوف فى المنعطفات فى الظلمة .. لكنه ما لبث أن رأى الحياة بهذه الطريقة قميئة بالنسبة إلى السن والرغبات .. وكذلك بالنسبة إلى

ما اكتسبه من معرفة . وهو يزيد إيماناً بأن قوة البناء لا تكون بمادة واحدة ..
فليس هناك جدار من الآجر وحده ولا (مونة) من الجير وحده . هناك
مخلوط من الأشياء .. ومثله مخلوط من الناس .. فماذا يحدث لو أن ثالوثاً من
الحاضرين الآن في دار المجلة .. أسرار والبدوى وصلاح .. لو أن هذا الثالوث
امتزج ؟ ..

وقال صلاح على استحياء :

— أنا لست رائعا .. لكن ممكن أن أكون رائعا منذ هذه اللحظة ..
وأكدت عيناه العسلتان قوله .. نظرتة كنظرة صقرو وجهه في وسامة قمر
.. وإذا كان عينا أن يقال هذا عن رجل فالذى دعا إليه هو أن السيدة أسرار
كانت أقل جمالا من الرجلين لكنهما لم يستطيعا أن يقاوما فتنها .. كانت الفتنة
تكمن في أشياء ترى منها وأشياء لا ترى .. شعرها المهوش وحقيبتها غير الأنيقة
.. ولهجتها السريعة الظامئة .. وجرائها وحيائها حين يختلطان معا في مشهد
واحد مثل النور والظلام في الأفق ذى الشفق .. وأردافها الكبيرة وضحكها
التي تخرج من صميم القلب حين تفتح فمها ضاحكة في حركة ربما لم تكن
رشيقة .. والوجه الخالى من المساحيق والشفاه لم تطل بشيء .. والعطر في
حقيبتها بجانب القلم .. كل هذا كان من الجانبين لغة مفهومة بالنسبة للآخر ..
أكدت له أنه لن يكون هذا آخر لقاء ..

* * *

ولم تعد السيدة أسرار منذ ذلك اليوم ولم تقل عن نفسها أكثر مما قالت ،
تركت للرجل والشاب « اسكتش » لصورة . ولم تكلف أحدا منهما بإكمالها
.. لكنهما في سهراتهما التي لا تنقطع إلا في القليل كانا يجنحان إلى الحديث عنها
.. كانت عينا البدوى الفاتحان تموجان بالتأمل وراء النظارة الطبية حتى ورد

الليلة ذكرها وقد مضى على لقائهما أكثر من شهرين .. فأخذ الرجل يقول في تفلسف شديد وشوق مكتوم :

— بخبرتي عن النفوس يا صلاح وبناء على ما قرأته من علم النفس خصوصا العلامة (فرويد) يا بني .. (وبسمة) ، أستطيع أن أقرر أن السيدة أسرار أطلق عليها هذا الاسم بعد أن كبرت .. لأنه لا تناقض مطلقا بين الشيء واسمه بالنسبة إليها . ربما كان اسمها وهي صغيرة (بهيجة) ثم غير اسمها لسبب ما .. وهذه الفتاة بما عرفته يا بني من علم النفس وخصوصا العلامة (فرويد) ، (تُعرف) ولا (تحب) وهي في مثل هذا العصر تعتبر سابقة .. والذي يسبق المجموع تراه كل العيون .. وأنت تعرف أن للسبق مساوئ تقع على الشخص نفسه وقد ينجني منها الخنظل .. وإذا كانت الدعوة إلى سفور الوجه لقيت في الشرق عناء فإن الدعوة إلى سفور الروح لقيت عناء في كل الدنيا .. فكما عانت المرأة خلف النقاب عانت الروح في بيوت النار والأصنام وقبود الكهنوت .. (صمت) صلاح .. كأنك نائم ..

انتفض الشاب .. كان مادا ساقيه فلمهما . اعتدل في جلسته ومد شفته قائلا في أسى وحنين :

— لم نعد نراها ..

— هل أعجبك طرازها ؟

— عندنا في القرية رجل اسمه محمد الجندى حدثك عن صفاته كثيرا ..

— كأني أعرفه ..

— كم أتمنى أن يجمع بينه وبين هذه السيدة مجال .. تمرد الجاهل وتمرد المتعلم .. تصورته وهو يضرب لها الأمثال مثلا وراء مثل .. وهي تسمع وترد بمنطق . لقاؤهما إذا اجتماعا يذكر بنقش (فلكلوري) على واجهة أحدث

فندق .. أو .. يا سيدى ..

— أنت تعانى من ضيق مالى .. المسائل نسبية .. هذا لا يهم .. كل ما يهم
أن تعرف ماذا تريد .. أو ما غاية الرحلة ؟ أما المشقات فلا مفر منها لمن يريد
شيئا .. حتى ولو لقاء مومس ..

رد فى كمد :

— أعرف هذا ؟

— آه .. هل قرأت أخبار دائرة المعارف الجديدة ؟ كيف فاتك ذلك ؟
صحف اليوم تحدثت عنها بحماسة ..

— إعراضى عن قراءة الصحف تعبير بسيط عن سخطى على الواقع ..
لذلك فإنى لم أقرأ صحف اليوم ..

— على كل حال هذا عمل عظيم ..

وتنحنج ثم سعل .. كان يريد أن يخرج الشاب من أفكاره لكنه لم يستطع ،
ومع ذلك استطرد يتكلم ، فهو كثيرا ما يكلم صلاح وهو مستغرق فى النوم
مدركا ذلك أو غير مدرك . هذا إذا باتا معا .. « البلبل لا يغرد لىسمع
الناس » ، كان البدوى يقول لصلاح هذا عندما يسخر منه فى لحظة يقظة
ويقول له : إننى كنت نائما ، وبعد أن يسمع رد صديقه يقلد صلاح صوت
البلبل ثم يستأنف نومه .. وقد يستأنف البدوى حديثه بعد أن ينفخ من
أنفه ..

وها هو ذا الآن يتحدث عن ناس اجتمعوا للبدءوا العمل فى دائرة معارف
عربية :

— عمل عظيم .. والأعظم من هذا أننا قوم عندنا كل شىء .. الأمية ودائرة
المعارف وبائع الأختام يجلس فى أحد الميادين فى العاصمة ليكتب للأميين

أسماءهم محفورة في دائرة من النحاس اسمها (الختم) .. ووراء هذا الرجل في الميدان واجهة زجاجية عظيمة لإحدى المكتبات التي تعرض أفخر أنواع أقلام الكتابة المصنوعة من الذهب .. (هي هي هي) عندنا كل شيء والحمد لله ..
فما يحزنك يا بنى العزيز ؟

قال صلاح فجأة ولم يكن ذلك على باله :

— أريد أن أسافر ..

ضحك البدوى وأقلل كتابا . وقام يتمشى في الحجرة وهو عاقد ذراعيه على صدره . أحس حقيقة أن صديقه الذى يملك المال والشباب يقع الآن في أزمة . وهو يعلم أن أخاه في بلده حنق عليه مما كتبه . ويعلم أن الفلاحين هناك (قلبهم مع « على » .. وسيوفهم مع « معاوية ») أفظع وضع .. أن نسل السيف في وجه من نخبه لأمر ما .

وقال البدوى بعد قليل :

— أليس في سفرك ما يسىء ؟ ..

رد صلاح بإهمال :

— لا .. مثل هذه الأشياء لا تثير ثائرة أخى .. وإلا ما كان أرسل إلى مالا .. هل يخاف من كلمة كتبها في مجلة ؟ .. وعلى رأيه « نوع واحد من الورق هو صاحب السر » وهو يقصد النقود .. أما ورقنا نحن يا سيدى فمن الممكن أن نشربه منقوعا .. ولو كنت فلاحا لعرفت أن قوله على حق كبير .. لكن .. كيف نغير الناس والأشياء .. إنها لا تتغير إلا بأسلوبنا نحن وعن طريق الورق الأبيض .. لكن .. لا بد من الزمن .. وقد قلت لى : « إن الزمن أستاذ » .. لكن يا صديقى ماذا نفعل بأستاذ صامت .. يدخل ولا يتكلم ولو كان في

رأسه علم جيل .. آه .. أشعر بالحنين إلى أرض النجومى .. ولو أننى فضلت عليها ذات يوم قاع سفينة من الفولاذ المظلم الحار ورائحة التوابل تكاد تخنقنى ..

— آه .. قد يكون فى استسلامنا للعاطفة خطأ ما .. لكن الاستسلام للعاطفة مفيد فى حد ذاته وإلا كانت كأنها غير موجودة .. وهى تعطى التجربة ولو كانت جرحا .. (صمت) سافر .. رعاك الله ..

وفى آخر السهرة تعانقا .. قلب كل منهما يخفق .. رأى البدوى مقدما مخالب الوحدة .. لم يسبق أن رآها كأنما نبتت حديثا .. ورأى صلاح مقدما وكأن نور المدينة انطفأ فجأة وأصبحت فى ضيق وتخرج حارات قريتهم .. ودمعت عينا البدوى وهو يتسم .. لمعت الدموع خلف زجاج النظارة وأخذت اثنتان منهما طريقيهما من تحت (الشنبر) . وأحس صلاح أن فى الدنيا أشياء صغيرة لا تحتل وفيها أشياء كثيرة يمكن أن تحتل ..

وعندما تلوى به شارع الخليج فى عودته كالعادة كان نسيم القاهرة يتحدث عن الربيع ، والظلمة التقليدية الخيفة على الشارع لم تخل من نداوة . وكان يسأل نفسه عن سبب قراره المفاجئ عن السفر : أهو طلب المال .. أهو حنين لأرض ولد فيها .. أو أن هناك سببا آخر قويا تنكر .. وهو الحنين إلى السيدة التى لم يرها منذ اللقاء الأول .. ما كان أجمل عينيها .. إنه يكره اندفاعها لكنه يشعر أن شيئا ما ربطه بها .. ربما كان فى الصوت أو الحياة أو .. لقد عرفه أخيرا .. إنه فى الضيق من الدنيا .

ولحظ فجأة أنه بجذاء النافذة المعهودة .. تلك التى فرضت نفسها عليه

— ٩٥ —

دون كل النوافذ ولو أن وراءها فراشا رخيص التكليف لكن فيما يبدو له ..
كان مهذا للحب .

وفي هذه الليلة كان المصباح فيها لا يزال سهران .. والصوت المخمور للمرأة
التي لم ير وجهها يتناغى ..

همس لنفسه من جديد وهو يتهد :

« آه .. لقد كبرت » ..

٨

وقعت عيناه على الربوة قبل مدخل القرية .. « حريق على الربوة » .. وهذا المكان لم يدخل إليه بعد مستشفى متنقل .. والأطفال يبولون في القنوات .. وهناك شبه (نصب تذكاري) أقامته الحادثة بنفسها .. بقية جذع نخلة أكلتها النار وهى واقفة .. كانت فى عمر الشباب لا تزال قصيرة ولذلك احترق جريدها كله وبقيت بقية من الجذع مثل (النصب) .. أحمر وأسود متفحما ..

ثم لقيه الناس .. « أهلا يا سى صلاح » .. ما لهم فى الريف هكذا يكبرون بسرعة ثم ينحدرون إلى الشيخوخة ؟!

« لم تتغير النظرات التى تركتها فى عيون الثيران .. ولغظ الجرارات لم يتغير .. وطه أخى .. واقف بعوده الطويل ولكنه يميل الآن إلى السمنة .. قبلنى فى جيبى قبلة أحسست فيها طعم الرثاء لى والياس منى .. وازنت بين عينيه القويتين المتهاككتين وعينى صديقى البدوى .. وتذكرت قول أخى عن الأرض . « إنها قاسية » .. لكننى عرفت اليوم لماذا تبدو القسوة فى عينيه .. ذلك لأنهما لا تستطيعان أن تريا الأفق الذى تنتهى عنده أملاكه .. ولو رآه لارتاح .. عيناه تقولان لى لماذا جئت ؟ ثم يجيب بعينه كذلك .. عرفت رغبتى .. ثم هز رأسه بالإيجاب موافقا .. كل هذا دون أن يتكلم .. » .

لم يتألم صلاح لما حدث وقرر أن يبيت فى القرية .. وهذه هى الأزقة المظلمة المتعرجة تذكره بشوارع القاهرة : « قل لها تعطينا

فانوسا .. وكذلك عين محمد الجندى وزوجته .. ذكر بهما عيني « أسرار » .. كان الرجل بادی الشيخوخة .. هذا هو الذى احتضنه وبكى .. وقال له كلاما طويلا فى اللحظة القصيرة التى يستغرقها الحضن .. بالقم والتنفس .. وكاد صلاح يشعر أنه طفل يلعب على مقربة من عربة أبيه .. ومحمد الجندى يغسلها ويحكى له حكايات .. لكنه اليوم لم يعد شابا :

« لا أقدر فى هذه الأيام على تقديم القهوة ياسى صلاح .. انظر .. انظر » . ونظر صلاح إلى كفيه فإذا هما ترتعشان .. بدون انقطاع .. واستطرد الرجل :

— هل تعرف الذى أصلح له هذه الأيام ؟! خادم فى أحد المساجد أحرس نعال المصلين حتى أموت .. لكن .. ليس هنا .. ليس فى قرية النجومى .. آه ياسى صلاح !

— ممكن أن تعيش معى فى القاهرة يا عم محمد .. ولا تقل هذا ..

ضحك الرجل فى خجل وأطرق فى ضعف شديد .. ورد :

— هل رأت عينك النخلة المحروقة فى مكان المستشفى ؟ هل يمكنك نقلها ؟ جذورها فى الأرض السابعة وليس فى رأسها جريدة خضراء .. (وتحسس رأس نفسه وضحك فى سخرية) .. أنا اليوم مثلها ياسى صلاح . تنهد الشاب .. وسكت .. كان يشرب شايا من صنع زوجة الرجل .. كان فى فمه عذب الطعم . رائحته كannon ونعناع وشيء من الصدا .. لكن .. له فى نفسه ذكريات عظيمة القيمة .. وفجأة بدر من الرجل سؤال إلى الشاب كان غريب الوقع على قلبه :

— هل زرت قبر النجومى الكبير ؟!

هز صلاح رأسه يومئ بالإيجاب .. ولم يدر ما الدافع إلى سؤاله لكنه (للزمن بقية)

تذكر نفسه ضحاً اليوم وهو في حوش المقبرة حيث يرقد النجومى بلا عباءة ولا عصا .. ولكى يؤنس وحدته كتب على القبر آيات من القرآن لا تكاد تحصى ﴿ يا أيها النفس المطمئنة .. ﴾ .. ولم يدر لماذا ذكر الرخام الملقى في مسقط النور في بيت صديقه البدوى .. ذلك الذى لم ينقش عليه حرف .. وتلك الليلة التى مات فيها أبوه وأطفئت الأنوار .. وسعى بين الفلاحين بملايس حارس الملك وهو لا يدرى .. لكنه ما لبث أن أفاق وقال لعم محمد :

— لكن .. لم هذا السؤال يا عم محمد ؟

قال الرجل في ضعف غير معهود :

— لأنك حضرت موته وأود أن يكون حظى مثل حظّه .

— أنت الليلة غيرك يا عم محمد .. أين أنت ؟

— غبت عنا ستين .. بعض الناس يقرءون كلامك هنا ويفرحون أو يحزنون .. ولكن الباقي .. لا يعرفون شيئاً .. أخوك امتلاً ذهباً .. (وبخنان) وأنت يا سى صلاح كيف حالك ؟

— هل تجب الذهب ؟

— وجعنتى .. أنا الآن لا أحب شيئاً .. كنت أظن أن الدنيا ستتغير بعد موت والدك .. لكن (ضحكة) يظهر أنها تغيرت في ميدان باب الخلق فقط عندك أنت .. هنا .. لا .. كل ما أشتيه الآن أن يكون لقبرى شاهد .. (ضحكة) هل يرضيك أن أتوه حياً وميتاً يا سى صلاح .. آية واحدة ورحمة والدك !.

قال صلاح ممازحاً :

— اخترها من الآن يا عم محمد .

تنفس الرجل طويلاً وسعل وقال بصوت خشنه البالغ آية حفظها من فقيه القرية :

— ٩٩ —

— ﴿ غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ﴾ .
صفق صلاح بكفيه واستغرق في الضحك وهمم الرجل بضحكة وانية
لكن بخفة ظل .

وقال الشاب :

— وهل تكتب مثل هذه الآية على قبر ؟

رد الرجل بعناد :

— غريبة ؟ حتى هذا تتحكمون فيه ؟ أنا حر بعد موتى ..

— لكن يا عم محمد .. هل تفهم معناها ؟!

— كلام الله نفهمه بقلبنا .

— أنت عنيد هذه الليلة .. هناك آيات معروفة لمثل هذه الحالات .

— سألت عنها الفقيه فأفهمنى معناها .. تعجبني .

— هل أنت ذاهب للموت أو للحرب .. هذه الآية للحرب .

— سنحارب بعد الموت (قالها بضحكة خفيفة) .

— كيف هذا ؟!

— سيكون لنا قوة ليست لنا اليوم (صمت طويل جدا) هذه وصيتى .

* * *

وامتدت إقامة صلاح عدة ليال .. كانت الليالى فى القرية بالنسبة إليه شيئا
مملولا . أئذن الثيران وصمت الآدميين .. ونباح الكلاب أحيانا .. وبدا غريبا
أكثر .. خصوصا لأن أمه لم تكن حنوناً عليه .. ولما سأها عن ملابس التمثيل
التي تركها هنا ، قالت إنهم أرسلوها لأصحابها .. وفى صبيحة اليوم الذى أزمع
فيه العودة إلى القاهرة دخل عليه أخوه طه باسم .. وفى بسمته خبث شديد ..
حدث صلاح منهما كأنه قد أعد له قبل مجيئه إلى القرية « خازوقا » من صنعه

هو لا من صنع غيره :

— صلاح .. مسافر يا حبيبي !؟

— بإذن الله .

قال بنفس الروح :

— لا .. ابق عندنا للغداء اليوم لأن محمد الجندى مات .

وقبل أن تحجب الدموع المراثيات أمام عين الشاب رأى شقيقه وهو يدير ظهره وسمعه وهو يضحك .. لكن المهم أنه بعد صلاة العصر خرجت القرية كلها تشيع الرجل . وكانوا يهمسون كأنما يستعظمونه على الموت وإن لم يستعظموا حياته .. ودخل الرجل قبراً بلا شاهد فوقف صلاح يفكر :

« إن بنيت له شيئاً سيهدم بعد سفرى .. وإن كتبت على قبره شيئاً .. مسحوه .. (وابتسم دامعاً حين تذكر الآية والوصية) .. لكن .. هل يرى الناس قبر النجومى ولو كان فوقه قبة ؟ .. لكنهم سيرون قبر هذا الرجل ولو كان البحر قبره .. لن يستطيع أحد حتى العدو أن ينساه .

لم يكن فى المجلة أحد ساعة دخلها اليوم .. زميله — كما أخبره الفراش — ذهب لمقابلة صاحب المجلة فى بيته .. استدعاه لأمر ما .. وهو لا يدرى متى سيعود ..

جلس صلاح يدخن .. عاد من القرية بنقود وجروح .. النصب التذكارى . جذع نخلة محروق . ومحمد الجندى فى قبر بلا شاهد ، وصايا المساكين لا تجد من يسهر على تنفيذها .. ولو كتب هذه الآية على قبره ما فهمها الناس .. لكن .. (الزمن أستاذ) كما قال صديقه .. عيبه أنه لا يوجه حديثه لفرد بعينه .. قضاياه عامة وحديثه — بالصمت — عام

لا ينقطع .. رائحة الشواء والمطعم والركن المظلم : « أين أنت الآن يا صديقي ١٩ ! إننى جوعان » .. إذا حزن صلاح أحس بالجوع وإذا ذهب عنه الخوف أحس بالميل نحو الجنس .. وإذا فرح بكى .. وإذا جزع جفت دموعه .. لم يذق مرضا قط .. يمر على باب مستشفى قصر العيني ويتأمل المرضى ويود فى بلاهة لو كان أحدهم مرة .. إحساس يقرب من الشذوذ أحيانا .. كوبرى الجزيرة ليس له رائحة كوبرى طلخا .. وطلاب (المنيل) يعبرون إلى الجامعة فى زوارق صغيرة .. ويتضحكون . وكذلك الوافدون من السيدة زينب .. « أين .. أى أحد ١٩ » .

واستفاق صلاح على تحية بصوت هامس كأنه يداعب .. هامس غير مبال كأن صاحبه على وشك أن يخطف شيئا ..

— السلام عليكم ..

رد التحية فى نشوة لم يعرفها من قبل :

— أسرار ١٩ جئت فى الوقت المناسب .

جذبت كرسيا وجلست ضاحكة تمرجح جذعها وتطوح رأسها ثم زادت همسا :

— مناسب ١٩ . مناسب لأى شىء يا ابني .

خفة ظل وغموض .. ووجهها يبدو عليه التسرع .. لبسها اليوم ليس فيه أى أناقة وثوبها واسع الطوق .. صدرها الأسمر باد أكثره فى حيوية وصفاء فوق الوصف .. فمها مفتوح تماما بضحكة لم تنته .. ولا يفوح منها عطر .. فى يدها حقيبة أنيقة .. وحذاؤها على الكعب .. شعرها مسرح كله إلى الوراء كشعر فنان من القرن الثامن عشر .

ولم يرد صلاح .. كان محمقا فى عينيها المهلكتين زاما شفثيه كمن يمنع

— ١٠٢ —

نفسه عن البكاء .. عطفت عليه أكثر وبدأت أقرب إلى الجدل الحزين .. فجأة :

— مالك ؟ .. أنت محتاج إلى حقيقة ؟

— جدا ..

— في أى شيء ؟ قل .. الشيء الذى يطلب بالفهم لا يمكن أن يكون قبيحا .

— نتغدى معا .

— موافقة .. أين ؟

— المطعم قريب منا .

وعلى نفس المائدة التى جلس عليها للمرة الأولى فى مطعم الشواء هو والبدوى جلس اليوم هو وأسرار .. الركن مظلم ورائحة ربيع .. وأزهار بسلة فى زهرية كبيرة . وجهها إلى الباب وهو أمامها .. وأمسك سكيناً أمامه .. كانا لا يزالان صامتين . تمحلق هى فيه وفى المكان كأنها سترسمه . ثم أخذ سكيناً أخرى .. وبحركة غير إرادية جعل يحك السكينين حد الأولى بحد الثانية بلا صوت كأنه يشحذهما ، أسرار تراقبه .. وتكتم ضحكها .. والشواء يجهز ..

صوتها عادة مرتفع النبرة لكنها إذا دخلت أماكن عامة تحول صوتها إلى همس .. استلذه الشاب .. أحس بيدها وهى تأخذ إحدى السكينين وتضعها على المائدة .. ثم سألت وقد مال وجهها نحوه :

— مالك ؟ .. مهموم .. لحظت ذلك .. هل تستفيد منى (هىء هىء)

لا أحب أن يسمعن أحد .. ابلغ ريقك باستمرار إذا كنت مهموما فهذا أحسن علاج .

فتح عينيه فيها .. وبدأت أمواج الضوء الداخلى من الباب المواجه إلى الركن وهى منصبة فى عينيها .. على شفتها السفلى انفعال وعدم مبالاة ..

وهز صلاح رأسه ليقول إنه غير فاهم شيئا فاستمر همسها :

— هل تعرف معنى بلع الريق باستمرار ؟ .. بصق .. لكنه إلى الداخل بدلا من الخارج .. أحيانا تحتم علينا الظروف أن نبصق في داخلنا .. أنا أعمل ذلك في ساعات ضيقى بدل أن أفعل شيئا غير صحى .. (ضحكة أعلى نوعا) ولماذا نبصق على الأرض .. أعتقد أنها تشبعت .. يا ابنى .. حاول أن تضحك أحسن لك .

— أنت رائعة ..

— وهم .. نحن لا نزال مثل اثنين على ظهر مركب .. لم يتم التعارف تماما .. أنا أكره التعارف بتقديم البطاقات .. مثل الخطوبة .. اغتصاب للعلاقة .. أحسن أنواعه ما يأتى بتقديم الشخصيات بدل البطاقات .. أين كنت قبل اليوم ؟

— فى القرية .. وأنت ؟ ..

طوحت جذعها وربعت ذراعها على صدرها وانبرت تقول كأنها تقرأ :
— أنت كنت فى القرية أما أنا .. ففى ألف مكان .. سافرت مندوبة للشركة التى أعمل بها إلى عدة جهات .. وحللت من المشاكل ما عقده الرجال قبلى .. وأنا دائما تسحرنى الأسفار .. ويلذى كثيرا أن أخرج بلا برنامج فى يوم راحة .. ولذلك كانت مفاجأة لنفسى أن وجدتنى أدخل المجلة اليوم لأراكم .

— مجرد مصادفة ؟ إذن لم تذكرينا منذ افترقنا .

— بالعكس .. لم أنسكم .

لهجة حملت رقة متفوقة .. مع هزة رأس فيها أسى غامض . استطردت بعدها :

— ١٠٤ —

— وأين زميلك ؟ .. في عمل خارجي ؟ .. كم هو طيب ومليء وظريف ! ..

— حكمت عليه بهذه السرعة ؟

— بعض الناس يحملون أحكامهم على أنفسهم مكتوبة على وجوههم ..

وصديقك من هذا النوع .

همس صلاح بفضول :

— وأنا ؟

فتحت عينها كأنها كبيرة أرادت أن تخيف طفلا وابتسمت له وهزت

رأسها مرتين :

— بعكسه تقريبا .

— آه . هذه شتائم .. اذكرى ما قلته عن صديقي (وضحك) .

— ليس كثيرا .. لكنك من طينة أخرى ؟ (هيء هيء) وأنا ؟ !

— لا أدعى أن لي قدرة مثل قدرتك على فهم النفوس .. وأنت على صواب

في أمر واحد وهو أنك تدعينني بـ (يا ابني) .. وكل ما أستطيع تقريره أنك

سيده ذات شأن .

— هذا كل ما عندك ؟ .. غدا تعرف أكثر .. ها هو ذا الشواء قد أحضر ..

أريد ماء باردا جدا من فضلك .. (وإلى صلاح) لا أعرف لماذا أحب

هذا ؟ ! .. أعتقد أن أهم ما يجب أن تعرفه عني هو حبي للتغيير .. لا تنظر بخبث

.. ربما حتى في هذا ؟ ! .. عمر الإنسان قصير إلى درجة ترفض الرتبة .. وقالوا

إن الإنسان قديما كان يعيش نصف ألف سنة .. فلا بد أنه بنى حضارات

أغرقها الطوفانات .. أنت في الثلاثين من العمر .. أليس كذلك ؟ (أو مأ

بالإيجاب ولم يحزن) وأمامك عشر سنوات لكي يكتمل عقلك .. (ها ها)

هذا إذا اكتمل .. في الشركة عندنا مراهقون في التاسعة والخمسين وأطفال في

الثلاثين .. ولم أجد بعد شابا في الستين من عمره .. في الحكمة ..

— ١٠٥ —

ولأول وهلة سمع صلاح صوت السكين .. لم يظلل صمت إلا هذه اللحظة . كانت هى تشرب .. ترتشف الماء ببطء شديد كمن يتمصص ثلجا .. وعندئذ سأل :

— أنت واسعة الثقافة يا سيدة أسرار ..

— لم أخرج من الجامعة ..

— لماذا !؟

— لأننى سقطت ..

— فى ؟ ..

— فى النيل ذات يوم وأنا أعبر فى زورق صغير من (النيل) .. كنت

وحدى مع النوى .. وسبح ونشلى ..

عادت تضحك بصوت خفيض .. وبدأ كلامها ذا جوانب .. وأيد

ضحكها رأى صلاح .. كانت تقصد غير ما تحكى .. لكنه قال :

— حادثة مثل هذه لا تمنع من استمرار الدراسة ..

— سقطت ونشلت .. ماذا بعد ذلك !؟

هز رأسه متغاييا وسكت . وهمهم :

— فى أى كلية تدرسين ؟

— فى الحقوق سنة .. ورسبت فى معظم العلوم ..

— برافو ..

— تركتها .. لم تقنعنى .. إذ وجدت القانون يوضع للضعفاء وحدهم .

— هل تريدن قانونا للأقوياء !؟

— الناس كلهم ..

— حتى الذين يضعون القانون !؟ ..

— أعتقد أن أول ناس اجتمعوا لوضع قانون على الأرض كانوا أقوياء لا
أتقياء ..

لم ترد ، صمتت تفكر .. شبكت أعلى السكين بأعلى الشوكة وأوقفتها
متساندين كضلعى مثلث المائدة قاعدته وأخذت تنظر .. ثم هتفت كمن ذكر
شيئا نسيه :

— وبعد ذلك التحقت بالآداب . سنة أخرى ..
— وسقطت ١٩

نظرت إليه .. كان في عينيها شيء جديد . ليونة وفتور .. وبدا جزء أكثر
من صدرها ليلها على المائدة .. وعلى وجهها سهوم من يكاد يشرع في الغناء .
صفر صلاح بصوت خافت جدا محاكيا صوت البلبل فلم يكن على قربهم أحد
.. ففتحت عينيها وقالت :

— لم أسقط .. تركت كلية الآداب في نصف السنة فقد كانوا يدرسون
كلاما لا يعجبني .. قل ماذا أنت ١٩

— أنا .. آه .. في الحقيقة .. اسمي صلاح النجومى وأبحث عن شخص اسمه
صلاح النجومى .. لا أدري .. كل ما أعرفه أننى غنى .. وأبحث عن الحرية .
— عظيم .. أنت تبحث عما أبحث أنا عنه ..

— عظيم .. إذن فليقدم كل منا شخصيته إلى الآخر .. هيا نخرج . هل
تحبين أن نذهب إلى مكان معين ؟

صمتت طويلا .. بدا التفكير الحقيقى على وجهها كأنها ترتب جدول
أوقاتها . صمتت .. ثم قالت فجأة وهى تنظر إلى الساعة في معصمها ..
— كان بودى .. اليوم .. آه .. ممكن ١٩ ! (وهزت رأسها ثم بصوت أعلى)
اليوم لا .. يوم آخر ما دمنا نعيش .

وصافحته على عجل وخرجت .. أراد أن يوصلها حتى الباب فلم تنتظر .. كادت تتعثر في أحد الكراسي قريبا من الباب .. وكان صلاح قد استدار يراقب ظهرها .. عندئذ أحس بحنين وغيظ ووجوم .. أحس أنه لا يمت إلى أحد بصلة .. وشرب ما تركته في كوبها من ماء حتى آخر قطرة .. وخرج من المطعم لا يلوى على شيء .

* * *

ذهب فنام .. واستيقظ والليل مستتب .. انتبه لأول مرة على رائحة جلود . فهناك مصنع أحذية وحقائب حريمي في البدروم في المنزل الذي يسكنه ، لماذا لم يحس به واضحا إلا الليلة ..

كان يهبط السلم ساعته .. جسمه كسول .. كان في الطريق إلى صديقه البدوى فقد أوحشه جدا .. رأى نور نافذة النوم مطفاة فرجح أنه غائب لكنه طرق الباب ففتح له .. تعانقا .. بضعة أيام غابها عنه أينعت فيها الصداقة . وعرجا على حجرة المكتب والنوم وجلسا .. كان البدوى في ثوب فضفاض خاطه لنفسه فكان غير مضبوط . لكنه كان في بياض السوسن .. وأضفى على الرجل روحانية تقرب من الرهينة .. وجلس البدوى يفرك كفيه كأنه يستدفع : « غبت كثيرا يا صلاح ، القاهرة بدونك ليست عاصمة » .

— إلى هذا الحد ١٩ —

— كل شيء بدونك غير أساسي .. حدثني عن أحوالك .

—

—

— آه كل هذا ؟ كل هذا ؟ اذهب أولا فاشتر لنا ما نتعشى به وارجع ..

وعلى العشاء كان البدوى يتحدث .. صاحب المجلة استدعاه اليوم وأبلغه

أنه قرر أن ينضم إلى حزب الفلاح . وسيعلم ذلك غدا في الصحف قريبا ..
وابتهج صلاح لهذا الخبر .. وأبدى البدوى كثيرا من التحفظ .. وقال
لصديقه إن صاحب المجلة أمره أن يكتب منذ الغد ضد ملاك الأراضي . وعند
ذلك نهض الشاب واقفا وصفق مثل عصفور ينفذ جناحيه لحظة الطيران .
وكان صديقه يمزج شيئا تحت ضرس يؤله فبدا وجهه ذا عبوس شديد :
« لا تتسرع .. قرب كلمة حق أريد بها باطل . سنكتب ضد ملاك الأراضي
كما يقول صاحب المجلة وسنرى بمرور الأيام ما يتم » .

لكن صلاح كان في عالمه فقال بفرحة :

— سأسهر لأكتب .. عن قبر بلا شاهد !

— قبر بلا شاهد !؟

— قبر فلاح أسير أسرقى حتى مات .. ولو كان لحزب الفلاح سفراء في
القرى لكان هو خير سفير له .. رحمه الله .

— الزمن أستاذ يا صلاح .. اصبر عليه وانتبه .. كل شيء سيتغير .. الأغنياء
والحكام خائفون .. وكل الأحزاب في مصر تريد أن يحطم حزب الفلاح ..
وهو لا يزيد على لافتة وحفنة رجال ومجلة عرجاء .. فترات الخوف أولى
علامات التغير .. آه .. أكلت الليلة كثيرا .. هل أستطيع أن أقرأ وأنا متخم ..
أوه .. نسيت أن أخبرك عن شيء جديد آخر .. عن رجال دائرة المعارف ..
ظهر أنني أعرف معظمهم .. رئيسهم يدعى أحمد رشاد وهو أستاذ عظيم .
العيب في أساتذتنا أنهم يخشون السياسة .. وأحمد رشاد في نظري مثل حي لهذا
النوع .. هو الذي سيشراف على دائرة المعارف وقد كون جمعية أهلية ستمول
المشروع . قابلته مصادفة في دار الكتب عند رجل سيعاونه في عمله .. لو رأيته
يا صلاح .. كم هو جليل ومهيب .. لو تجسد الحق المطلق لكان شخصه ..

ويقولون إنه شحيح اليد لكنه كريم العطاء فكريا .. مؤرخ من طراز باهر ..
وأديب من طراز عادى .. ومفكر من طراز يعجب ..

وعندما رآنى دعانى للاشتراك معه . قلت فى نفسى إنها فكرة طيبة
ومدروسة خصوصا إذا كنت معى .. لكن الوقت كان قد فات .. كانت المجلة
قد انضمت إلى حزب الفلاح (وضحك ضحكة عالية) وارتفع أجرى وقرر
لك أجر . لم تعد محررا يشد عربة بل محررا سيركب عربة .. بشرى .. ثم تأتى
حزينا .. أيها الصغير الذى كبر فجأة .. حزينا من أجل فلاح مات .. ماذا
تقول إذن لو كتب عليك القدر أن ترى عالما يحتضر . رأيت ذلك بعينى .. كل
هذا لا يهم .. المهم أن مجتمع هذه الأيام قد ضاق عليه جلده .. سنستيقظ من
النوم فنرى المجتمع بجلد جديد .. أوسع .. يناسب النمو الصامت الصاحب
المهادئ الوديع .. نمو من كل نوع يا بنى .. رأيت بالأمس قطة تصعد سلم دار
الكتب الرخامى ، ولما أرادت أن تدخل من الباب أمسك البواب بخناقها
ورماها من أعلى السلم .. ضحكت منه وقلت له : أهذا لأنها لا تستطيع كتابة
اسمها فى سجل الزائرين ؟! ورد الرجل فى ضيق :

— تدور على رزقها فى مكان تانى ..

فقلت له : رزقها هنا .. فالفيران فى المخازن أكثر من القراء .. لكن القطة
لم تياس فغذاؤها فى مخزن الكتب .. صعدت السلم وهى تئن وتموء .. ففعل
بها ما فعله فى المرة الأولى . كنت أنا على أرض الشارع .. تحت .. أنظر ..
فرأيته تعاود الحركة بنفس جريئة وعزيمة شرسة . فقلت فى نفسى ، ماذا
يا ترى ؟ .. فانفلتت خلصة ودخلت من الباب .. وسمعت الهرج والمرج ..
وسكت البدوى ونفخ الهواء من أنفه .. وكان صلاح صامتا . وأشعل كل
منهما سيجارة ، وفجأة قال صلاح :

— لقد قابلتها اليوم ..

نداوة عينيه تحت النظارة اختلطت بخنان لطيف .. وتبسم في هدوء .. شبه حلم .. كأنما رأى العربية التي كانت مريته تدفعها به . ولم يتكلم .. طيف جميل من الصمت خيم على الحجرة .. فقد كان الحديث حول الأمل والعمل والحب . وإن لم يقع بعد .. وخيل إلى البدوى أنه قادر على عمل خارق لكن صوته عبر عن شعوره .. فأخذ يغنى .. وبصوته الهادئ الحلو أضفى جوا جديدا أكثر حياة فذهبت عن صلاح همومه . وضحك وقال لصديقه :

— لماذا لم تسألني عن بقية التفاصيل ؟!

— غير مهم . المهم أن تكون موجودة .. سراها كثيرا .. وماذا عملتما ؟
— تغدينا معا ..

— لو كان اسمي السيد البدوى كما قلت لك من قبل لكان الحظ معتدلا .
هو مقلوب لأن الاسم مقلوب .. (هـى هـى هـى) ألم تترك عنوانها ؟
— لم تترك شيئا .. انغمست فيها حتى نسيته .. كلماتها ذات درجات مثل السلم الموسيقى .. كلمة واحدة تعطيك ما تريد وما لا تريد .

شعوذة من نوع علمي .. « سقطت ونشلت » وتقول دون أن تتكلم ..
وقد تتكلم دون أن تقول .. وجلست مسترخية على المائدة حتى كادت تنام
ثم خرجت من المطعم تتعثر في الكراسي .. كزوبعة ..
وصمتا .. نظرا في الساعة .. فعلا ذلك معا .. وأطرقا .. فعلا ذلك معا
وفجأة ..

— صلاح .. سألبس لنخرج .. فأنا أحس أن الحياة الليلة خارج هذا
المكان ..

عصاه تحت إبطه وهما سائران في شارع الخليج .. أجراس الترام ومصباحه
الأمامي النعسان .. وصرير عجلاته في اللفات .. ومعظم البيوت تعطى
ظهرها لشارع الخليج حيث تفتح الأبواب في الشارع الموازي، لذلك بدت
معظم الأبنية غير مطلية .. طوب عريان أثرت عليه عوامل الجو ، وجنب
الحيطان الطويلة الخالية من الأبواب والشبابيك لبعض الأماكن روائح غير
محبوبة ، والبدوى يمشى بخطو واسع جنب صلاح الذى لم يخرج من خيالات
اليوم . وأمل الغد ، سيكتب كما يريد .. شعرا وقصصا ومقالات .. كل ما يريد
.. فى « المجلة الجديدة » .. التى تعبر عن مصالح الفلاح ..

و لم يبد الشارع طويلا هذه الليلة .. وصلا إلى ميدان باب الخلق .. حيث
انتشرت رائحة الموز والفطائر .. ولم يسأله صلاح إلى أين .. كأنما لذه أن
ينقاد ، وعرج البدوى على شارع حسن الأكبر ثم سار .. أحس الشاب
بالفضول ..

— إلى أين ؟ .. هل سنكتب اسمنا فى سجل التشريفات الملكى ، (ضحك
البدوى) . لماذا لم تقل لى حتى كنت أحضرت (ختم) محمد الجندى ؟!
مسجد أثرى صغير إلى اليمين .. الآن .. وحارة يدخلان إليها .. تبدو
ضيقة . وظلامها ريفى والبيوت فيها من طراز القرن الماضى ذات الأسوار .
والأبواب من خشب مزخرف .

— وصلنا ..

رد صلاح :

— إلى أين ؟!

— إلى مقر دائرة المعارف .

— يا للبهجة !.

— هل تعرف هذا البيت ؟ .. كان ملكاً لأحد أفراد أسرة مصطفى كامل .
هل تشم رائحة المجد ؟ ... انظر هذا السلم المستريح المواجه الذى ستصعده
الآن .. يخیل إلى أننى أرى مصطفى كامل بعوده القصير وبذلتة « البنجور »
الطويلة الذیل وحركته السريعة يصعده أربعاً أربعاً ..

دقات ساعة حائط .. سقط صوتها من بئر السلم يعلن انتصاف ساعة ..
الوقت متأخر لكن أصواتاً فى أعلى لا تزال يقظة .. وضحكة متدفقة بصوت
أجش أعقبها صوت جرس مكتب .. ورائحة ورق وأزهار ..
كانا يصعدان السلم .. وفى المنحنى رأيا شبحاً .. كاد الاثنان ينكران
ما يريان .. إنها السيدة أسرار .. تحيى بأعلى صوتها وكأنها فى بيتها :
— أهلاً .. غير معقول .. ماذا أتى بكما إلى هنا ؟ ..

أمسك صلاح كفها ونسى .. والبدوى لا يزال ماداً يده ليسلم .. وأخيراً
.. أخذ يدها منه وهو يبتسم .. كانت فوق درجة أعلى فسامت وجهها وجه
صلاح والبدوى أدنى منها .. فى ثوب أسود فيه أشياء تبرىق .. وخاتم ودبوس
.. وأحمر شفاه .. وفى العينين كحل .. امرأة غير التى كانت فى المطعم وقت
الظهر .. أحس صلاح إزاءها أنه مخبول .. أما البدوى فكان يبتسم فى هدوء
ويتحسس عصاه وينفخ من أنفه . فقالت :

— هل أنتما على ميعاد ؟
هزا رأسهما معا .. نفياً .. هزة رجل واحد ..
— إذن ..

همست بهذه الكلمة ودخلت بينهما وأمسكت يد صلاح ونزلوا السلم ..
وعندما وصل الثلاثة إلى الحوش الواسع قالت كأنها تعاتب أحدا :
— أنا لا أحب الشيوخ .. الشعر الأبيض يملأ رعوس كل من هم هناك ..

— ١١٣ —

وعلى كل حال رأيته من بعيد فقط فقد كنت عند شاب في السكرتارية ..
والآن إلى أين تريدان أن تذهبا ؟ ..

قال صلاح :

— الرأي لك ..

فقلت :

— يجب أن نخضع جميعا لما يقترحه الأستاذ البدوى ..

فرد قائلا :

— من أتلف شيئا فعليه إصلاحه .. كانت لنا خطتنا ولم يعد لنا خطة ،
فعليك إذن أن تقترحي .

قالت بصوت كأنه مخمور :

— أريد أن أهيئ على وجهي .. أحب هذا . إن وافقتم ههنا نحن الثلاثة على
وجوهنا .. نمشي كما اتفق ونتكلم كما اتفق ونمضي وقتنا هكذا .. ليتنا نستطيع
أن نتسلق سور حدائق الأورمان وندخل ..

رد البدوى :

— هذا جنون ..

فقلت :

— ليس فيها كلاب تنبح . وماذا سيفعل بنا الشرطي ؟ دعوه لي إن رأنا ..
سأضع له قطعة من النقود بين أسناني ليأخذها بأسنانه هو وتنتهي المشكلة ..
قال البدوى بهدوء كامل :

— إذا أردتم خبرتي فلنذهب إلى العباسية الشرقية فهي أنسب مكان لنا
الليلة . فهي أولا (عباسية) وهي ثانيا ذات هدوء شامل نستطيع أن نهيم فيه
على الوجوه .. آه .. عندما يجتمع كتاب ومصباح وامرأة فلا يحدث إلا شيء
(للزمن بقية)

— ١١٤ —

واحد غالبا : يقفل الكتاب .. ويطفا المصباح .. وتنتصر المرأة ..
هزت رأسها وتماوج شعرها وهى تضحك :
— ملء ولطيف .. عمل حقيقى أيها الرجل الطيب ..

* * *

العباسية الشرقية نائمة ..

شوارعها الواسعة خاوية .. وظلال الشجر فى الليل ترسم دوائر من الظلام
ذات تعبیر (سريالى) .. غموض مشهور على بعض النوافذ التى لا تزال
مضيئة ، وعلى الأسوار الحديدية التى ينظر من وراء بعضها كلب حراسة
وللسماء صفاء وشفافية تسحر الروح ..

وكلما حاول أحد الرجلين قراءة اسم شارع منعه أسرار .. شعر الثلاثة
حقيقة بالانفصال عن المؤلف .. كانوا يتكلمون فى كل شىء ، وأضفى
البدوى على الموقف الغريب كثيرا من الاتزان . على الرغم من أنهم كانوا يقفون
ويضحكون أو يستمعون لبقية حكاية وأحيانا يسرعون .. وأحيانا يبطئون ..
قال البدوى وهم يصعدون فى شارع مرتفع :

— اسمعى يا آنسة ..

فردت باحتجاج جميل :

— محتجة .. أنا سيدة ..

— حتى الآن لا أستطيع تصور هذا .. يخيل إلى أنك لم تخوضى التجربة

التقليدية وإن كنت سيدة ..

ضحكت أسرار فى حياء نوعا :

— ربما كنت على حق (ولمست كف صلاح وضغطته) فقل ما تريد

الآن ..

— ١١٥ —

— أنت عدة مشروعات لشخصية لم يكتمل أى منها .

زجرته بلطف قائلة :

— .. أنت قاس .. مبالغ .. مخطئ ..

نفخ من أنفه واستطرد :

— لكن كل هذه المشروعات غير المكتملة كونت مصادفة شخصية جذابة

.. لا ترضى كل الناس ولا تحمل اسما .. لكنها حلوة .. مجموعة من مشروعات

كونت من باب الصدفة (كوكتيل) لذيذا .. هل عرفت الحب !؟ ..

هتف صلاح :

— يا له من سؤال ..!

ردت أسرار :

— جدا .. لكنه هو الذى لم يعرفنى .. (ولان صوتها فى شبه انكسار)

ولذلك أنا محتجة عليه .. أخطف براعمه من على كل شجرة وأفرکها بين

كفى ..

سأل صلاح :

— لكنك أحيانا تظهرين حنونا ..

قالت :

— الشفرة تحلق وتذبح .. عندى كل أوليات المتعة لكننى لا أستطيع أن أقيم

منها بناء .. الفرق كبير بين أوليات المسكن وبين المسكن نفسه .. أنا لا أريده

يستأثر لكن المهم أن يكون مسكنا .. كان لى زوج ولم أعش معه طويلا ..

خدعنى .. منحنى لقب سيدة وتركنى .. يشكر على كل حال .. فعن طريق

هذا اللقب أبكى ناسا وأبكاني ناس .. وعثرت رجلى بتجربة .. وفقدت

كثيرا من الأشياء التى يحترمها العصر لأن العصر نفسه هو الذى أخذها .

وفجأة شدد صلاح من رباط عنقه حتى كادت تخنقه وهى تقول كأنها تقاضيه :

— تعال .. أنت تتكلم عن حرية الفلاح .. فهل تظن أن امرأة مثلى أخذت حريتها ؟

همس مأخوذاً :

— إذن فما كل هذا ؟!

— لا تكن مثل العمدة الذى يدخل مرقصا ذات ليلة ولأول مرة فى حياته فيعود إلى قريته ويقول : لقد رأيت نساء القاهرة .. تكلم يا أستاذ بدوى .. كيف ترانا ؟!

— أرى أنك أحسن مثل يعبر عن عبودية المرأة .. وكل عمل من أعمالك شكوى غير مكتوبة تقدمينها لحاكم غير مسئول .. والمرأة التى تمسك بالفأس الصغير فى الحقول تملك جزءا من الحرية .. صغيرا جدا لكنه جزء من الحقيقة الكبيرة .. أما أنت فعندك قدر كبير من المجوهرات الزائفة .. سأل صلاح :

— إذن فمتى تملك حريتها ؟

— عندما تنسى هذه الكلمة .. هل ننطق بكلمة الصحة ونحن أصحاب ؟ صفر صلاح كالبلبل .. وجرت أسرار شوطا أمامهما .. ووقفت تلهث حتى لحقا بها . وعندئذ نظر البدوى فى ساعته وقال بهدوء الذى لا يتخذه حادثة :

— لقد تأخر الوقت .. وعلينا أن نعود إلى بيوتنا مشيا على الأقدام ..

ظهرت الصحف اليومية طوال هذا الأسبوع وهي تحمل نقدا محرقا لحزب
 الفلاح : لأن المجلة الجديدة وصاحبها بدا نشاطهما فعلا .. وبين المخلصين
 يوجد الزائفون ولا يخلو المجتمع الزائف من المخلصين .. ليدور الفلك . كان
 الأستاذ التهامي يجعل من هذا العمل (لعبة الشهرة) وأخذت الأيدي التي
 تمتد في الظلام في هذا الوقت إما بالخناجر وإما بالمال .. أخذت تمتد إليه بالمال .
 هذا في الوقت الذي كان فيه النجومي وصديقه يكتبان بعصارة القلب كأنهم
 ناسون أن الأمر هزل في هزل . كتب صلاح مقالا بعنوان « قبر بلا شاهد »
 .. وآخر بعنوان « وصايا المساكين » ، وكتب البدوي قصائد من الشعر
 الحلمنتيشي يبدؤها ببيت لشاعر مشهور ثم يبنى عليه كلاما لا يخضع
 إلا للوزن والمشكلة .. وبدأت دار المجلة يتوافد عليها شبان يبدو عليهم الجذ .
 وبدأ صاحب المجلة بمرور الأيام يخاف من المستقبل . فالتعاقد بينه وبين حزب
 الفلاح زائف لكن العمل الذي يقوم به غيره كان حقيقيا . وبدأت الحقيقة تمتد
 حتى كادت تطوقه وعندئذ أحس بالقلق . فدعا البدوي والنجومي إلى بيته
 ذات يوم لغداء عظيم ثم أراهما مقالا لم يكونا قرآه فيه اقتراح بأن « يذهب
 أعضاء هذا الحزب إلى الريف — إن كانوا رجالا — ويسمعوا رأى الذين
 يدافعون عنهم . رأيهم فيهم .. على شريطة (كما قال الكاتب) أن يحملوا من
 الهدايا بعض ما يأخذون هم من هدايا ، وأنه ليس من هم هؤلاء إلا تعكير
 سكون الراحة للنفوس القانعة . ألم يكف أن الله منحهم الشمس الساطعة

والحقول الخضراء ؟ » .

وكانت المجلة هي الشيء الحقيقي في الموقف كله .. ففرض صاحبها عليها الحجز . فنحى كثيرا من الأعمال . مما جعل البدوى وصلاح يشعران بشعور جديد عبر عنه البدوى ذات مساء في بيته ليلة قال لصديقه :

— نحن نطلق الهتافات لغرض غير حقيقى . فإذا بدأ الهتاف يصنع (الغرض) غيرنا الهتاف خوفا منه . حفلات زار .. المقصود منها الضجيج .. والضجيج في ذاته يتحول إلى لذة مستقلة بمرور الوقت . كمادة الصفيح في دور السينما الشعبية .. وقد بلغنى والله أعلم أن رئيس حزب الفلاحين نفسه احتج على الأستاذ التهامى صاحب المجلة .

— لماذا !؟

— لأنه أخذ الموضوع جدا أكثر من اللزوم .

— إذن فأين الحقيقة يا أخى ؟

ضحك البدوى ضحكة فيلسوفة .. ضحكة لا يصنعها رسام .. صنعها الألم وتحمل الألم والنظرة المتعالية .. وبرقت عيناه النديتان خلف النظارة .. وقال بصوت هادئ جدا :

— الحقيقة .. إن كنت تريد لها .. عند الأستاذ أحمد رشاد .

— ماذا تعنى !؟

أعنى أنها تعريف .. وصف .. تاريخ .. في دائرة المعارف الجديدة التى يعملونها .

كلما مر صلاح النجومى على النافذة المعهودة في شارع الخليج في أخريات معظم الليالى كان يراها إما مضيئة أو مظفأة .. لكنه كان يترث أمامها ليناجى نفسه :

« لقد كبرت » شيء مجهول يخرج من بين قضبانها يحدثه عن العمر كما تتحدث الساعة عن الوقت . لكن الساعة تعيد ما تقول كل يوم .. وهذه النافذة تغد أرقاما لا تتكرر . لها عقب غريب وإن خيم الظلام على الحيطان حولها . فهذا البيت من ضمن البيوت التى يفتح بابها فى الشارع الموازى وشبابيكه من الخلف .

وأحس بحاجة إلى التوقف ، كان فيها نور واليلة من شهر ديسمبر .. ضباب خفيف وبرودة ووقت متأخر ، ولم يدر لماذا ذكر (أسرار) .. هام معها كثيرا وحده وتحذثا فى كل شيء وطوق خصصها بذراعه وقبل يدها وهو خائف ولكنه لا ينساها .. لعله يحبها . خيل إليه أنها ستنظر إليه من النافذة .. هذه .. أحس بهموم الجسم وحده فى هذه اللحظة ، ونسى الاشتباكات المتصلة بينه وبين صاحب المجلة وشفاعات البدوى . نظر إلى النافذة فسمع نفسه يهتف : « لقد كبرت » وجاءت فى هذه اللحظة النعمة المعهودة ، صوت لامرأة يميل إلى الغلظ مشروخ متراخ :

— متوحش ! ..

وتكررت الكلمة وهى فى طريقها إلى التلاشى فأحس بالبرد الشديد .. مشى يرتعد .. و (أسرار) لا تفارق خياله ..

وعاوده رأى صديقه فى الحياة كلها : « العمل فى المجلة أصبح مثل الإقامة فى بيت الطاعة .. زوج غنى وبيت كرينه ضيق وحب مفقود . وعلى أصحاب الضمائر أن يتعذبوا . ماذا تعمل إذا خيرت بين أن تدوس وأن تداس ؟ ! » وهأنذا أجوع وحدى يا صلاح وأشبع وحدى ، جوعى عاقل وشبعى شاكر .. حزب الفلاح يا صلاح لا يقل رفاهية عن نادى اللوردات .. إنك تحب السيدة أسرار ولكنك تقاوم .. وأنا شخصا أحبها .. وقد عرفت أننى من

الزاهدين فى النساء .. رأيت المربة ذات يوم وأنى يقبلها بطرقة أذهلتنى .. كانت أمى غائبة فأصبحت قبلتها على فمى فى مذاق زيت الخروع ، كنت أتعذب بالاثنين وكانت هى التى تسقنى إياهما .. ولم يتغير الموقف كثيرا فى نظرى حتى الآن .. ولما رأيت أبى يمشى على ساق خشبية اعتقدت أن المربة هى التى أخذت ساقه الأصلية . وما دام هناك امرأتان فلتأخذ كل منهما ساقا .. زجرنى أبى حين قلت له هذا وأنا أيامها طفل غرير . أما السيدة أسرار فهى مستعدة أن تعطيك . تحب عقلى وتعشق شبابك .. أنت ومن هم أصغر منك نيط بهم تغيير المجتمع . وإذا كانت أسرار تكره الرعوس البيضاء فما ذلك إلا لأنها لا تزال غير صديقة للحكمة .. إنها ذات إحساس يجرى فيه الألم واللذة فى خطين متوازيين . أتصورها تبكى بحزن ما دامت فى أحضان رجل . تكره التحدى ولا تحب المسألة .. ألا تذكر يا صلاح يوم جاءت إلينا فى المجلة بملابس خفيفة ونحن فى الشتاء ، وكانت يومها ترتجف من البرد كى تحس بحرمان المحرومين ؟ وفى اليوم التالى كان عليها معطف من الفراء . أفكارها نفسها (هائمة على وجهها) كما فعلنا نحن الثلاثة فى العباسية الشرقية .. وليس الهيام على الوجه رديئا دائما .. كم خلق من الأبطال .. يطلقون على « أبو قردان » اسم صديق الفلاح فهل ليس للفلاح صديق غيره ؟!

يا للحسرة .. أنت يا صلاح وأبو قردان فقط ..؟ لن أتزوج يا صديقى . أنت تعرفنى منذ خمس سنوات وتعرف أنى أستطيع أن أكون أبا حتى لمن هم أكبر منى . وسألتنى عن مشكلة الجنس بالنسبة لى فقلت لك : إن ثمار جوز الهند ذات العصير والشحم تجف بمرور الزمن .. أما أنت فإننى أرى مستقبلك .. شارع الخليج يا صديقى هذا أصله كان ترعة .. ثم ردمت .. سار فيها الترام بعد القوارب وتكاثر فيه الآدميون بدل الأسماك .. وأكل بعضهم بعضا

كذلك .. الذى يتمرد على الفقر لأنه كان فقيرا ربما استرخى إذا اغتنى ..
 أما الذى يتمرد على الفقر وهو غنى فلن يسترخى إذا افتقر .. وهذا مولد
 مشكلة .. وأنت يا صلاح تمرت على الفقر بلا تجربة له ولا خوف منه ..
 فماذا سيكون منك ؟ .. قلت لك إن شارع الخليج أصله ترعة .. ثم ردمت ..
 يا بنى » .

وأفاق صلاح وقد وصل إلى ميدان باب الخلق وقد خلا الميدان ، ووقفت
 دار الكتب فى وسطه بجدرانها المخططة مثل مسجد بلا مثذنة .. وأحس صلاح
 بالزمن .. ورأى أفكاره تموج .. تذكر موسم دود القز .. وهو غلام فى
 المدرسة .. وعلبة الكرتون التى يحمل فيها هذا الشيء .. والحركة .. والحرير
 .. والشرنقة .. والموت فيها .. وانبعاث العذراء .

* * *

« أنت تكتب من أجل حرية الفلاح وقد عملت أنا من أجلها لكل الناس .
 بلا قلم » . قالت أسرار هذا وهى تضغط على معصم صلاح بكل قواها . وهما
 معا فى أحد الكازينات تظلل المكان جذوع النخل المشقوقة عليها نباتات غزيرة
 الورق .

كان أمامها شراب مع العشاء المتأخر . وصلاح يشرب القهوة ، كانا قد
 تحدثا كثيرا وأثنت على كتاباته على أنها مثل البنادق فى الحروب الكبرى . وعلى
 أن البنادق قد يكون لها من الأهمية أحيانا ما للمدفع ، وقد يتفوق الخنجر أحيانا
 على الاثنيين . أما هى فأخذت تباهى بما لم يعرفه : « .. عملت أنا من أجلها
 لكل الناس بلا قلم » .. وسألها :
 — وماذا كانت النتيجة ؟ .

— رأيت نفسى جادة مع قوم هازلين ، وشجاعة مع جماعة من الجبناء .

— ١٢٢ —

— هل أحببت أحدهم ؟

— أحببني أحدهم .

— أى ي ؟! .. طيب .. وماذا يحدث لو أحببت شخصا لا يحبك ..

— غير ممكن أن أحب من لا يحبني ..

— مجرد فرض .. لأنه يحدث لنساء غيرك ..

قالت باهمال وهى تعلق شفتيها :

— أخنقه ..

هز رأسه مستفهما فى صمت أبكم فاستطردت :

— أستدرجه إلى مكان ما وأخنقه بـ .. بشفتي ..

— أنا بالنسبة إليك كذلك ..

فتحت عينها مثل كبير يخيف طفلا :

— هل تريد امتحانى .. لا .. أنا أحبك . لكن لم تصل بعد عندى إلى

الدرجة التى أضعف فيها أمامك ضعفا كافيا ..

— ومتى تبلغ المرأة هذه الدرجة ؟

— عندما تتلاشى الدرجات .. أنت لا تزال فلاحا .. تحلق فى بعينى صقر

.. تخيفنى .. أستطيع أن أنومك بعينى وأخلع عنك ملابسك وأتركك عريانا

.. عندما تتلاشى الدرجات لا أتورع أن أقولها بنفسى ..

سكت . ظل يحلق فيها بعينه الفاتحتين والهدب الذى يلمس الحواجب .

وبدا أمامها بقامته الطويلة شيئا يجب حقيقة لكنه لا يزال فى مجال الصهر .

— سأخذ عربة عند عودتى فهل تحبين أن أوصلك إلى بيتك ؟!

قهقهت وطوحت جذعها .. وهناك خصلة شعر على خدها ، ومدت

رجلها ولكرزت رجله ، ثم قالت باستخفاف :

— أنت الذى توصلنى يا ابنى؟! هىء هىء .. أنا التى أوصلك .. حتى لا يعتدى عليك أحد فى الطريق ..

شعر صلاح بضيق .. دعاياتها كثيرة لكن هذه آلمته ، فزم شفتيه مصمما ونهض فى صمت .. ونهضت .. مشيا صامتتين .. أدركت أسرار ماذا يجول بنفسه . ولما ركبا سارعت فقالت للسائق : « شارع حسن الأكبر » فصمت صلاح . وطوال الطريق لم ينطق بكلمة . وكان يسمع همهمة ضحكة قصيرة لها . وعندما يسقط النور فى حجرها كان يرى كفها الجميلة .. كان فى كفها سحر لا يعرف . يد هى فى الحقيقة من صنع فنان . لثم أناملها ذات يوم فسكر . وامتدت ذات ليلة قربت خده . وعملت هذه اليد من أجل حرية ناس وامتدت فدفعت عن جسم صاحبها مخاطر مفاجئة . وتلوثت بالخبر والدموع . وكانت قابضة على شئ غال وخطف منها .

ووقف محرك العربى . نزل الاثنان . وانصرف السائق . مد صلاح كفه إليها يسلم فلم تمد يدها .. فاستدار داخلا فدخلت وراءه ، كان مأخوذا ، وفى حوش البيت رائحة جلود والظلمة راكدة .. صعد السلم فصعدت وراءه . جالت تفحص المسكن بلا مبالاة . همست كطفلة :

— جميل .. أين حجرة مكتبك ؟ فى غرفة نومك .. عظيم ..

ودخلا .. المكتب بما عليه من مجلات وكتب وما فوقه من رفوف قريب من الشباك .. فتحته وأقفلته .. وبعد أن أطلت إلى الشارع . همس صلاح : « مجنونة » ، وجلست على كرسي أسيوطى ومدت جسمها وتأوهت ، ثم نظرت إليه .. جلس على كرسي آخر صامتا وقد حمل رأسه بين كفيه .. كان يعانى ويخاف .. لكنه أفاق على همسها :

— ماذا تقول فى شرك؟! .. شاب وشابة فى مكان مقفل .. ماذا تريد أن ..

— ١٢٤ —

— أنت شريرة ..

— أنا؟! .. لا تصب غضبك .. أقصد لا تصب شوقك .. في قوالب من

الشتائم .

هز كتفه :

— أنا لست مشتاقا ..

نهضت بسرعة ، ووقفت أمام مرآة الصوان تمشط شعرها بمشط التقطته من فوق المكتب وتأودت ثم رمت بالمشط على الأرض وقالت له ووجهها في المرآة .. قالت بجذ :

— تعال .. تعال انظر معي هنا .. سترى معي شيئا غريبا ..

نهض مأخوذا ونظر في المرآة .. وهز رأسه . ماذا تعنى .. وعندئذ أدارت ظهرها للمرأة ووضعت كفيها على كتفيه ورفعت قامتها فأنحنى يقبلها وقد أمسك بها شديدا ..

روائح لا تحصى ملأت الحجرة كأطياف ثملة .. ومن بينها تمثال « قاذف القرص » الرومانى الذى يمثل القوة .. كل هذا رآه بعينه .. ومن ضمنها حكايات البدوى عن المربية والأب ، وحكايات محمد الجندى عن جنيات الليل ..

حملت في وجهها ووجهها بين كفيه . فدفعته وتخلصت منه والتقطت المشط من الأرض وأعادت تمشيط شعرها ، ثم ذهبت لتأخذ الحقيبة . نظر صلاح فرأى التصميم في عينيها .. إنها تريد أن تنزل حقيقة ، فقال لها بمرارة :
— عرفت كل ما تقصدين !؟

ضحكت ضحكة مخطوفة وقالت مستعجلة وهى تقطع الطريق إلى

الباب :

— ١٢٥ —

— أردت فقط أن أريك في المرأة منظر الحيوان وهو يخرج من جلدك ..
لا تحاول أن تلمس ثيابه ..

* * *

لم ينم بعدها حتى دبت حركة النهار ..
وفي صبيحة هذا اليوم دخل دار المجلة فألقى البدوى هناك على وجهه
ابتسامة المهموم .. كان يعرفها عنه .. ابتسامة تجعل حد زاويتي فمه كأنه
متشنج .. وكان ينفخ من أنفه .. ولما رأى صلاح داخلا نهض بطريقة تمثيلية
وسلم عليه كأنه شخص غريب لم يره من قبل ، وقال له :
— ألف مبروك ..

ذهل الشاب . وحار بين الجد والهزل . على أنه يعهد البدوى ساخرًا
ولا يعهده هازلًا . سأله بالهمهمة : « ماذا ؟ » .
فقال الرجل :

— نحن الاثنان مفصولان من المجلة ..
— هه ؟!

— قرار معطر برائحة السيجار .. تعال نتوكل ..
ووضع عصاه تحت إبطه بطريقة لم تتغير منذ عرفه . عصاه القصيرة الأنيقة
الرفيعة . وتأبط ذراع صلاح وسحبه خارجين من الباب بينما كان الحوش
المترب تحترق فيه أوراق في ركن ناء . ورائحة الكيوسين المألوفة تفوح مع
الدخان ..

وكان شارع محمد على مائجًا بالحركة .. والجو حار .. فلم يدريا إلى أين
يذهبان . كانا مثل شبحين طلع عليهما النهار فزادا ضياعًا .
لكن البدوى كان يفكر في صمت وبين حين وحين تأتى إلى صلاح

نفحات أنفه .. وراودت صلاح أفكار كثيرة .. منها أن يتوظف .. ويستريح .. ثم ذكر أنه لا يبحث عن القوت لكنه يبحث عن شيء أعلى .. وفكر في البحث عن مجلة أخرى أو جريدة يومية لكن ذلك كان بعيد المنال . خصوصا لأن هذا الرجل الذى يتأبط ذراعه كان جديرا بأعظم مما أخذه الكثيرون .. مواهبهم حناجر أو أيد تنظف المعاطف .

فكر صلاح والبدوى يجره عبر الشوارع أن يأخذ الثانوية العامة من جديد ويلتحق بالجامعة ومن هناك يبدأ مشروعاته .. لكنه ما لبث أن ذكر كثيرا من الجادين منهم الذين كانوا يترددون على دار مجلة التهامي . وأنهم كانوا يشعرون بأن الطريق أمامهم مسدود .. ما داموا لا يملكون الحناجر .. وأحس صلاح والبدوى يجره عبر الشوارع الحارة غير المزدهمة الآن بالناس — أن رواج الرخيص مضىعة للعصر كله . وأن أصحاب العقول والأقلام بين المشهورين فى ذلك الوقت وقع كثير منهم فى فخاخ المناصب أو الانتظار .. فأصبح « لكل ذمة ثمن » .. مثل ذمة حزب الفلاح الذى أغدقت عليه جهات مجهولة معروفة حتى صار فى فخامة لورد ..

وتذكر صلاح ما قالته أسرار من أنها عملت من أجل « حرية الناس بلا قلم » فراودته فكرة أن يعرف هذا الطريق .. ما دام طريق القلم أسود كالمداد .. لكنه سمع البدوى الذى يجره عبر الشوارع الحارة يقول له :

— لا تشق نفسك ..

رد بشرود :

— ماذا تقصد ؟ .. أعود إلى قريتي .. عندنا فطير ولحم كثير ونساء .. وحياة لا تعرف الحركة ..

ضحك ضحكة سطحية لا تعنى شيئا . ورفع إليه عينيه اللتين تحملان

طمأنينة السلام :

— الأستاذ أحمد رشاد سيرحب بنا .

— هل تظن ذلك ؟!

— سنرى ذلك مساء اليوم ..

* * *

ولم يأت المساء بسرعة كما هي عادة كل يوم . تلكاً كثيراً في نظر صلاح .. وفي الساعة الثامنة دخلا الدار العتيقة .. كانت تضج بالحركة عندما وصلا إلى الصالة العليا وأصوات الآلات الكاتبة تتدفق من الأبواب المفتوحة ، ورعوس بيضاء تبدو خلف المكاتب .. تذكر صلاح (أسرار) . إنها لا يعجبها هذا .. « إن أسرار عدة مشروعات ناقصة لعدة شخصيات » . كما قال عنها البدوى .. وفي المكان تحت ساعة الحائط تمثال لسقراط .. على قاعدة من شيء في سواد الآبنوس .. والبندول فوق رأس الفيلسوف .. يتحرك كأنما بتيار من تحته . وبجانب هذا المنظر باب الأستاذ أحمد رشاد .. مقفل .. لكن ليس عليه حاجب .

طرق البدوى ودخل ووراءه صلاح . كان الرجل مستغرقاً فانتبه ورحب بالداخل ترحيب من يعرفه . ولم تطل الابتسامة ولا الترحيب وحلق للشباب من خلف النظارة مثل سؤال يمتحن . خفق قلب صلاح . ولأول مرة يرى العلم المجرد المتكشف بعد صلف التهامي وزخرفته . ودخل البدوى في الموضوع : « يسعدني أنا وزميلي أن نعمل معكم في دائرة المعارف » .. رد ووجهه على ورقة وعيناه قريبتان منها وفي يده قلمه وابتسامة على فمه وانية : — للاستفادة أو للوظيفة ؟ ..

قال البدوى :

— الوظيفة المفيدة أحسن من « أكل العيش » ..
 — فهمت غرضك .. وعلى كل حال العمل عندنا بالإنتاج .
 رد صلاح بسرعة :
 — أما أنا فسأتعلم .. لا أريد إلا أن أتعلم ..
 حلق الأستاذ فيه وهز عوده الطويل وسأله عن اسمه وبلده فعرف عنه شيئاً
 ما . فزاد ترحيبه .

* * *

على أن صلاح وإن كان يتعلم فهو يعيش فترة من اليأس أو على الأقل في
 حالة مثل حالة تراجع الزمبل حين يثقل الحمل عليه .. ومن كتب التاريخ
 والسير وكتب الأدب والتراجم ودوائر المعارف عرف صلاح أكثر مما يشتهي
 .. ويمشي الزمان منوما بالنسبة إليه . يحلم بما يعيش فيه لا بما يريده . وأغدق
 عليه أخوه من المال أكثر مما يطلب .. ربما بقصد قروي يعرف صلاح من أمثاله
 الكثير لكنه مثل المقامر الذي يخسر بإرادته . فهو بهذا يدخل السرور على نفسه
 وعلى نفس الآخر .

وأصبح حى السيدة زينب وأمسياته ، وحى عابدين ورائحته ، وشارع
 الخليج ومنعرجاته ، و (أسرار) وتقلبات قلبها ، والبدوى وعظمة كل
 ما يفعل ، ومطعم الشواء ، وهيكل دار الكتب المخطط ، وشارع حسن
 الأكبر وانحداره ، ورائحة الجلد في أسفل المسكن ، وشارع محمد على
 وبواكيه ، وقصص أبطال التاريخ والفكر في فن العرب والأجانب ، والحب
 الغامض — أصبح كل هذا عالماً جديداً يحس فيه صلاح بنوع من الطمأنينة .
 ليست طمأنينة الإقامة الدائمة بل سعادة الرحلة الممتعة .
 وكانت سعادته عظيمة حين نشر في إحدى المجلات الأدبية أو صحف

المساء بعض تراجم تحمل اسمه . مع تلخيص وتعليق . أحس بالميلاد . وقال يومها لصديقه البدوى : الميلاد الحقيقى هو ما يشعر به المولود . وتعانقا . وعملا جنباً إلى جنب . ونشرت صحيفة مسائية صورتيهما معا فوق خبرين . ورأى صلاح ما يفعله الدأب والمثابرة . وتصور كيف تتكون الجزائر وسط الأنهار . الطبيعة تعلمنا العمل . الصبر والمثابرة .

بقى عليه إذن أن يشق لنفسه طريقاً أوسع . لكنه — وليس يدرى لماذا — أحس فجأة بالحنين إلى (أسرار) . إنه لم يرها منذ أشهر .. وهو الآن شخص معروف إلى حد ما . مثقف .. يستطيع أن يتكلم فى أشياء لا تخصى .. أعماق الكتب وطول الليل .. والنظر القوى والشباب . وصدقه الذى يصفق له . وعدم احتياج للمال .. « ما أجمل هذه المواد لكى تبنى منها نفسك .. » هكذا قال البدوى ، لكنه يريد أن يراها . تلك المرأة التى تمثل عدة نساء فى عدة صور .. وتحيل نفسه معها فى قارب على مياه المنزل .. والليل مقمر .. وطيور غريبة الصوت توقوق بين خمائل البوص . وهو يقلد لها صوت البلبل .. وهى تغنى .. بصوت لا يبدو جميلاً لكنه عصير امرأة .. صوت البدوى فى الغناء أجمل منه .

كانت تمر عليهم فى دائرة المعارف ، بين حين وحين .. ومعها حقيبة أو أوراق ثم تجلس . وتسلم بسرعة ، وتهكم على الرعوس البيضاء وتقول لصلاح : « بعد سنة جديدة .. فقد مر عليك هنا ثلاث سنوات . ستصبح شائب القلب . دخلت الدير يا ابنى .. وتهز جذعها ورأسها بالضحك وتصرف فجأة كشأنها . تجلس طويلاً طويلاً وتنفض كأنما نسيت شيئاً أو لتلحق بقطار .

(للزمن بقية)

وكان الليلة خارجا من المسرح هو وصديقه البدوى .. فرأياها تسلم على شخص كبير السن ، ودعته باحترام وتركته فمشى يتلفت ، قطع الميدان في لهوجة من يريد أن يعود سريعا ، ومشيت هي . حاذت سور حديقة الأزبكية متجهة إلى العتبة .. والوقت بعد منتصف الليل .. خريف .. ونسيم يهبل لمقدم الشتاء ويلعب بشجر الحديقة .

حاذت الأكشاك التي تبيع الكتب ثم تريت عند أحدها . لا لسبب واضح . هتف صلاح لم يناد . قلد صوت البلبل في هدوء رائق فالتفت وعرفت صاحبه ، عادت تقابلهما كما يفعل تلاميذ المدارس .. « في أى خمارة كنت يا فلاح » .. وضحكت تهز جذعها ، فمها مفتوح بالضحك لكنه ساحر . والبدوى يطوح العصا ويسأل من أين أنت راجعة ؟ .. وساروا .. هائمين .. يتكلمون في كل شيء حتى المسرحية .. وقالت أسرار لصلاح : « لقد تغيرت .. عقلك تضخم .. » وقهقهت .. وسأل صلاح :

— من كان معك ؟

— هل رأيته ؟

— وكذلك هذا الرجل ..

— أحد الموظفين في الشركة .. رجل كثير الهموم .. نخيم الحزن على قلبه لأن زوجته خائنة فرأيت من الإنسانية أن أستجيب لدعوته للمسرح .. ربما .. عاد سعيدا .

كانت تتكلم بطريقة طيبة تدرس أدق ما في الإنسان . رجل أو امرأة على حد سواء وتقول بلهجة فخور « عاد سعيدا » ، وهدوؤها مثير . ونفخ البدوى من أنفه . وزجر صلاح وهو يعاود السؤال :

— كيف جعلته يعود سعيدا ؟!

ردت ببساطة :

— رأى المسرحية معى ..

سأل صلاح بنخبث :

— وعندما أغمى على البطل ورقصت البطلة حوله .. فى دائرة سحرية

فأفاق .. كتعبير عن العبث . ثم قبلها .. فماذا فعلتما ؟!

— أنت نخبث يا صلاح .. لو كنت جوارى ماذا كنت تفعل ؟! أخذ

كفى من حجرى وأمسكها .. لم يفعل غير هذا .. (وضحكت مثل

مخمورة) نوع من التكفير عن سيئات الماضى يا ابنى العزيز ..

قال البدوى :

— ومن أى نوع يكون هذا التكفير ؟

قالت وكأنها تعد حروف كلماتها :

— من نوع .. تكفير .. قاطع .. الطريق .. حين ينضم لقوات الأمن ليلة

واحدة .. تصدق بالحرام لوجه الله ..

سيارة التاكسى تقف بهم الثلاثة الآن عند مدخل الحارة التى يسكنها

البدوى .. نزل الرجل وحيا .. وعادت بهما السيارة . هتفت أسرار بعد أن

مضى الرجل قائلة للسائق هذا العنوان « شارع حسن الأكبر » ..

عاد الصمت والهمهمة مثل الليلة المعهودة . فتحت الحقيبة ففاح عطر ..

وسمع تنهدا .. كل منهما الآن فى جانب .. والنور ينصب فى حجرها على كفها

الساحرة . ونظرات يراها مع بقايا ضوء تحمل شيئا غريبا .. ولم يدبر صلاح

لم عاوده نور القمر على سطح البحيرة وأصوات الطيور ، حتى وقفت

السيارة ، وكانت هى قد سبقته إلى الباب :

— ١٣٢ —

— هل عندك شىء يؤكل ؟

رد بتلعم :

— نعم ..

ردت بنجث :

— أتعشى وأنزل ، لأنى مستعجلة ..

— وهل هذا معقول !؟.

ردت بنجث أكثر :

— أنت شاب غير طيب .. إذن ماذا تريد ؟ جئت لأتعى فى بيت

رىفى ..

..... —

— إننى أعانى هوما ولو أنى حملت الهم الليلة عن ذلك الرجل الكبير ..
كان ساعتئذ يدير المفتاح فى الباب .. ودخلا .. وبسرعة عظيمة أتى بطعام
كثير من المطبخ وجلسا . كان بادى الاضطراب لكنه لم يكن مختارا ، وضغطة
البدوى على كفه وهو يودعه آخر الليلة كانت لا تزال كأنما توجعه . وفورا
بدأت تأكل . بعد أن خلعت جاكطة التايور الخفيف .

— لعلك لا تصدق ما قلت ؟!

أفاق صلاح فى هذه اللحظات . كل حاسة من حواسه استردت حالتها
العليا .. كان يحس أنه أمام تجربة خارقة . لها وجهان . إنسانى وغير إنسانى .
وشعر أن تعاسة فى غموض الليل تخيم على نفسها كتلك التى لا يستطيع
المصباح السحرى المتحرك مع جسم الراقصة أن يغسلها عن نفسها . وعادت
أسرار تكرر :

— لعلك لا تصدق ما قلت .. إننى أعانى .. هـ ..

— ١٣٣ —

— أنا مستعد أن أستمع إليك حتى الصباح على شرط أن أرى فيك شخصية الفتاة التي كانت تلبس الثياب البيضاء ذات يوم ..
وقفت عن المضغ وحملت فيه . أما هو فقد ارتبك . عاودته حكاية اللص الذي وضع أصبعه على الزر ليشعل النور فيرى ما يريد فإذا بالزر زر جرس ..
وذهل حينما رأى الحوادث تتداعى :
— من قال لك إننى كنت ممرضة ؟

— الناس ..
— أنا لا أخافهم . بعد الطعام سأحكى لك ..
— عرفت ..
— ماذا ؟

— كنت ممرضة تعالجين الناس .. وظيفة .. كما كان أى عمدة يحكم الناس ..
ماذا فى هذا لكل وظيفة ؟
رددت فى أسى :

— أبوك كما سمعت كان ظالما .. فهل أنت مثله ؟! .. آه .. لقد شبت ..
اذهب أيها (الجنتلمان) فهات لى فوطة مبلولة أمسح بها يدي فلست أريد أن أقوم .. (ومن بين أجفانها المغمضة تماما قالت) : أشكرك .. (وفتحت عينيها) أهنيك .. تغيرت .. هل يعيد الكيان الاجتماعى بناء قامة الرجال ؟!
لست أنت الذى رأيته من سنوات .. أنا أريد أن أرتاح . فلتجلس صامتا ولا تتكلم .. استمع فقط .. كما يفعل الأطباء مع مرضى النفس . سأفرض أنك غير موجود وأترك ما فى نفسى يتدفق .. بقدر ما أستطيع .. أنا أعلم أنك لا تشرب الخمر وكان هذا فى صالحى .. وبعد أن أفرغ من كل ما أريد قوله يأتى دورك .. قل .. أو تصرف .. وإذا كنت أنا قد حملت هم رجل وحملت

أنت همى (وبضحكة) فلك أجران عند الله .. هل ترى فى هذا وقاحة .. اه .. ما أحلى أن يغمض المرء عينيه ويفكر بصوت مرتفع وكأنه ليس معه أحد .. وأخيرا يفيق فيرى : آه ..

رائحة مسكنك فيها عرق الرجال .. وليس فيها عبق النساء .. تعطره الليلة فقط .. مجتمعكم الوغد خلط الحرام بالحلال لأنه يبحث عن (الفايز) .. أنتم تستعملونها فى الريف بمعنى (الربا) .. أعرف هذا .. وليس الربا فى المال وحده ولكنه فى العلاقات حتى بين الرجال والرجال .. منافع .. فتحتم لنا باب الجرأة والإهانة .. كل رجل منكم فى خياله امرأة غير التى يعاملها ... المرأة (مركز الدائرة) شئ أصيل وأساسى لكنه محاصر .. (محيط الدائرة) حوله ملئ بالتناقضات .. لقد عشتها مثنى وفرادى وجماعات .. وأنتم فى دائرة المعارف تبحثون عن تعريف للحب .. منذ أكثر من سنة .. (هىء هىء) فى كم سنة ستعرفون الحرية ؟ .. إن تعريفها يحتاج إلى جيل .. أما تعريف الحرب فلن يأخذ منكم سوى عدة دقائق ١٩. لماذا .. كل هذا فى حرف الحاء .. وهل تستطيع يا ابن الحاكم أن تعرف لى كلمة حكم أو حكمة أو حركة أو حلمتيتشى ..

(الحلمتيتشية) يا دكتور صلاح هى مدرسة الفن والأدب والسياسة والأخلاق فى هذه الأيام .. سأسكت قليلا ثم أفتح عينى .. لأراك فى مكانى وقد أحضرت لى بيجاما ألبسها لأنام تحت اللحاف حالا .. لأننى أرتعد .. وعلى كل حال فأنا نصف سكرى فقد شربت عدة كئوس مع الرجل الذى كان معى فى المسرح ولم تتعش إلا خفيفا ، كنت جائعة هنا .. وشبعت .. تعال شم نكهة الخمر التى لا تشربها .. ثم أطفئ النور لتحمل همومى .. وما فوقها من هموم حملتها عن إنسان اكتشف أنه مخدوع فكاد يموت .. آاه ..

١٠

« من الممكن أن أعيش الآن من كسب يدي وليس من إيجار أرضي .. سقط ميراث النجومى اليوم من حسابى .. آه .. خطابات من ريف المنصورة تأتى إلى مشيدة بما أكتب .. اليوم أحس كأنى زرعت البرارى . لكن أخى طه يرى كل هذا باطلا .. ومن وجهة نظره : « ماذا تفعل كلمات كتبت فى جرائد يلمع بها زجاج النوافذ فى المدن ومصاييح الجاز فى الريف ؟ » .. عندما تخضر الأشجار يظن الناس أن هذا قد حدث فجأة لأنهم لم يروا إلا الجزء الأخير مما ظل يحدث وهم لا يشعرون . راودنى ناس كثيرون أن أسافر إلى الخارج لكننى لا زلت أذكر الليالى الأليمة التى نمتها فى قاع السفينة فأخاف .. وفى يدي الآن سلاحان أستطيع بهما أن أعمل عملا ما . القلم والمال . أشعر وصديقى البدوى ينظر إلى أنه أحيانا يتحول نظره إلى إكبار ثم يتحول إلى خنوع ولو لوهلة قصيرة فيحز هذا فى قلبى .. والعمر يجرى به ولا ضمان له .. مرض ليلة وكنت إلى جواره فبات يهدى ثم قال فى ساعة صحوه : « يا ابن النجومى ابن لى قبرا ولو مثل قبر محمد الجندى .. أحيانا يتألم الحى حين لا يعرف أين سيرقد أخيرا » . ثم قهقه كأثما يسخر من رجل غريب .

أحس الآن فى هذه الفترة وقد بلغت الثلاثين أننى لإسفنجة غمست فى سائل له قوام وشربت وتشبعت .. وفجأة أحسست أننى آخذ من السيدة (أسرار) أكثر مما تظن هى .. فمن كل مشروع ناقص لكل شخصية تحملها

هى تمتعت أنا بعدة شخصيات فى هدوء التأمل وصبر أهل الريف ، ولذلك أستطيع أن أقول إننى أحببتها غير خائف ، فعندما تلقانى بالشخصية التى لا أريدها ذات يوم أعرض عنها .

شخصية المجربة والمجنونة والمستهرة وأطيب النساء كل هذا فى جلدها .. ليرحمها الله .. لا تظن أنها ماتت .. ليرحمها الله .. ففى بعض الليالى تبتهل وتصلى .. وفى بعضها تشرب .. وأحياناً تؤكد أن قلبها لم يعرف الحب وأنها لا تزال عذراء لأن العبرة بعذرة الروح .. وفى ليلة شتاء طويلة قد تبيت هلوكة .. وقد عاشرت فيها كل هؤلاء .. وقال البدوى فيها قصيدة قرأها عليها . غازها ونقدتها وخدش حياءها فى القصيدة . وحفظتها أسرار . قالت لى بعض أبياتها وهى فى حضنى فأحسست أنها مع رجلين فى هذه اللحظة . ليرحمها الله .. إنها من دواعى الأسى والنشوة فى حياتى .

محمد الجندى يعبر عن طائفة من الناس تطلب الحرية بصفاء ومواصلة كمن يتהלون إلى الله دائماً عقب الصلوات .. والسيدة أسرار طائفة من الناس تطلب الحرية بجزع وهلعة وصراخ يجعلها تسلم زمامها لمن يقول لها : تعالى فمفتاحها معى . والأستاذ البدوى يبحث عنها فى المعرفة .. حيث يسبح هناك فى أنوارها متحرراً من الطموح ومن أثقال كثيرة أخرى . أما أنا فلن أراها إلا فى إطلاق سراح النظرة واللسان واليد .. هذه الجوارح التى رأيتها مكبلة فى قرية النجومى .

سألت السيدة أسرار عن الوسيلة التى دافعت بها قبلاً عن حرية الناس .. لم تشأ أن تجيب .. حكاياتها غير منسقة وليس ذلك ناشئاً من ضعف خيالها ولكنها — المسكينة — تغالب طبيعة الكذب فى نفسها فتغلبها فتخط الصدق بالكذب دون قصد . وتحكى مثل مخمور .

وعلى السامع الفطن أن يرتب الحوادث .. إنها مثل الأطفال — أحيانا —
 يحكون الأحلام على أنها حقائق لأنهم لا يفرقون بين ما يقع لنائم وما يقع
 لغيره . فهي تحكى أمانها على أنها ذكريات . وتحكى ذكرياتها على أنها شيء من
 الممكن أن يقع في حياتها . وتقص الواقع المر في اعتزاز القادر على حمل
 الأثقال . وقد تبكى لحادث تافه وتضحك وهي تبكى . وقد تقطع الكلام
 والوقائع في عنفوانها .

* * *

كان أبوها حلاقا ضنين الرزق وأمها امرأة حسناء . وهي من مدينة طنطا .
 والأم تعمل خاطبة . وعندما يعلن أحد الزبائن رغبته في الزواج يحمل الزوج
 طلبه من الأوصاف إلى امرأته التي كانت تتفوق عليه في الشخصية . وغالبا
 ما تتم الخطبة . وكانت أسرار أصغر الأبناء والبنات . ولذلك كانت تحضر مع
 أبيها وأمها ليالى مولد البدوى حيث ينصب الوالد خيمته الصغيرة لختان
 الذكور من الأطفال . وتجلس زوجته وقد بدا الإغواء في عينيها عندما ترى
 رجلا يبدو عليه الرخاء . ولا تنقضى أيام المولد إلا وقد تفوق دخل هذا الحلاق
 على جميع زملائه بفضل عيون زوجته .

على أن البنية كانت شديدة الإحساس . كانت ترى غبن الأب واستبداد
 الأم .. ولم تكن الظروف عادلة في الجمع بينهما . رجل قبيح الحلقة ضعيف
 وامرأة حسناء ذات شخصية . وكانت البنية تحب أباه . ولما كبرت شعرت
 وكأنها زوجة ثانية له تحنو عليه وتحاول أن تدفع عنه وقاحة الضرة . غير أن هذا
 كله كان في ضميرها . كانت تكتمه ولا تبوح به . وكرهت البيت وأحبت
 المدرسة وتفوقت كثيرا .. مما جعل الأبوين أنفسهما يعجبان .. « من أين
 جاءها كل هذا ؟ » .

وأتاح لها تفوقها أن تتم دراستها الثانوية ..
غير أنه في خلال مرحلة الدراسة كانت تعمل عملا إضافيا عدة ساعات
مساء كل يوم في عيادة أحد الأطباء بالمدينة كان يعرف والدها ويتردد على
دكانه قديما . وكانت تخدم مرضاه نظير أجر يساعد الأسرة ، ولكن هذا لم
يعقها عن التفوق . فقد كانت تحس أن كل ما حولها غير منظم وأن عليها أن
تنظمه . وتذكر منظر أبيها في المولد فتشمئز .

ولما بلغت مبلغ الفتيات لم تكن جميلة . وجهها مستطيل أسمر مليء بالزغب
وعيناها واسعتان مليتان بما يشبه الخوف .. وشفاتها تتحرك أحيانا كمن
يحاول الكلام ويتراجع . وكانت تود بينها وبين نفسها أن لو كانت رجلا ..
ثم .. تتراجع في لحظات وتقرر أن وضعها هكذا طبيعي جدا .
ورأت أنه من الضروري في حياتها أن تضيف لجمال المرأة وصفا جديدا .
ومن هنا بدأت تتخبط .

وكان ذلك عقب نقلتها إلى القاهرة حيث دخلت الجامعة .
وكان همها أن تعرف أكبر عدد من الناس .. وقد حملها هذا على أن تتعلم
كيف تكلم كل من تعرف فقرأت 'وعايشة وعاشرت .. أعجب بها
الشذاذ . ورأى فيها العاديون من الناس شيئا طريفا ، أما من هم فوق العاديين
فقد رأوا أنها موضع دراسة .

ذهبت يوما إلى مكتب التلغراف وهي طالبة لترسل بريدية إلى إحدى
القرى . كان الموظف شابا حديث السن على وجهه جهامة ووسامة . فقد
جاوز الثلاثين .. مشمرا كمي قميصه والوقت ربيع فيبدو في مظهر من يهم
بعمل شيء خارق . ألقى إليها نظرة ففهمها ، ثم أهملها عامدا . كان الوقوف
في المكتب فوضي بلا دور فبرر هذا عمله المتعمد وصبرت ثم احتجت . فلما

رفض احتجاجها ثارت . فأخذ منها البرقية . وقرأ ما فيها ثم ردها إليها بحجة أن هذه القرية ليس بها مكتب تلغراف وأن عليها أن تذكر المكتب التابعة له . ولم تصدق فتأزم الموقف . وكان موعد (ورديته) قد قارب . غير أن كلا منهما في نقاشه للآخر كان يقوم بعرض لشخصيته بتعمد خفى . وكان هناك إعجاب متبادل لم يحن الوقت بعد لظهوره .

كان رأسه كبيرا للغاية وفي أسفل ذقنه (نونة) تقسم الذقن قسمين ووجهه موردا . يلبس نظارة صافية بيضاء ورائها عيان غامضتان ليستا واسعتين لكن نظرتهما تجرح . وكانت ثيابه الفاخرة تتنافى مع وضعه في هذه الوظيفة فضلا على أنه حاذق اللسان .. أخيرا نظر إليها وقال لها وهو يعضغ الكلمات : « لوجه الله سأفتش لك عن أقرب مكتب للقرية » وانشغل عنها وتركها غصبي .. ولما انصرفت رآته إلى جوارها في الشوارع . وتبادلا وهما في الطريق في همس بعض ألفاظ تعتبر تكملة لما فات .. للموقف الفائز .

لكنها باتت تذكر ملامحه . المشحونة بالجاذبية والسخرية ، وكانت تحاول جاهدة أن تتخلص من مجاله المغناطيسى .. غمغمته تغلب صوتها العالى .. وتعبيره بوجهه دون كلام يثير فيها إعجابا وتطفلا .

وبعد بضعة أيام مرت على المكتب فلم تجده . وفي اليوم التالى عادت إليه تحمل برقية جديدة باسم قرية جديدة . وكان المكتب شبه خال من الناس . وفرصة (المناظرة) تبدو أوسع مجالا . وكان هو اليوم في كامل ثيابه في أهبة وأناقة .. ولما وقع بصره عليها لعبت على شفثيه ابتسامة خفيفة رأت فيها الاستعداد والتوقع ، وضعت كتبها الجامعية على مقربة من عينيه كى يراها . وقدمت إليه ورقة البرقية . وعندئذ رأت نظرتة إلى كتبها وما تحمله من استخفاف أعظم في الوقت الذى كان يبدو فيه متشاغلا بقراءة العنوان . ولم

— ١٤٠ —

يلبث أن رفع إليها عينيه . صوبهما إليها و كور بوزه وبسطه في استخفاف مثير .
وقلب كفيه :

— أين هذه القرية يا آنسة ؟

— على مقربة من المركز .

— أى مركز !

— لا أعرف ، فهى كما ترى تهتة بالزواج لزميلة قالوا إن اسم قريتها كفر

الصايغ ..

همس يعض الكلمات كالعادة :

— ربما تكون كفر الضايغ .. فكرى ..

— هل تعرف أنت هذا الاسم ؟

كان في هذه اللحظة واقفا وعيناه على كراسه محاضراتها . فأجاب برقة

بدت غريبة عليها :

— نعم أعرف هذا الاسم يا آنسة أسرار .. لكن .. بدمتك .. هل لهذا

العنوان وجود في الدنيا ؟

بدت عليها الربكة فقد اكتشف لعبتها ، وهزت كتفها بدلال وعدم

مبالاة . وأخذت منه الورقة التى كان يبدو أنه مشغول فيها بإصلاح العنوان

وعند باب المكتب قرأت فيها « كازينور ٦ » .

* * *

ليلة كانت تتناول عشاءها مع صلاح النجومى وهى مسترخية في هذا

المكان وتغمز قدمه بقدمها من تحت المائدة والوقت متأخر ، وترفع وجهها إلى

السقف لترى جذوع النخل التى غطيت بالنباتات وتقول له : يا ابنى أنا التى

أوصلك حتى لا يعتدى عليك أحد .. في هذه الليلة كانت تذكر هذا

الفتى .. أنور .. حين وفدت إليه في هذا المكان ونمت بينهما العلاقة . كان ينفق عن سعة ويدعى في شبه مزاح أنه رزق سماوى فأقاربه غالبا ما يموتون دون ورثة وخيراتهم تؤول إليه . وأكد لأسرار أن فيها المعنى العظيم الذى تفتن هى به وهو سحر الأنثى . وحدثها عن كثير من الشخصيات المهمة في مصر خصوصا في الصحف .. وأطلعها مرة على بطاقات المعايدات التى تصل إليه منهم فافتنت به .. وادعى أن عنده من المال ما يكفيه وليس في حاجة إلى أن يحسن مركزه في الوظيفة .. وكانت هى تعيش على الكفاف والمساعدات الاجتماعية فعينها في الشركة التى تعمل بها حتى الآن .

وبمرور الايام اكتشفت أنه غير راض عن الدنيا . وأخذ يحدثها عن المساكين وعن ناس كثيرين يحبونهم ولكن المساكين لا يعرفونهم ، ثم كان حديث مفاجئ ليلة حب .. والقمر يذهب رمال الصحراء وهما سائران على مقربة منها في مصر الجديدة . وتستدق الكف بالكف حين تطبق عليها .. وظل يحدثها عن المساكين حديثا ذكرها بوالدها عند باب خيمة الختان في مولد السيد البدوى وبأمرها وعينها المغويتين .. وشجار والديها والشتائم عند مدخل الأعياد والمواسم . وصوت المطر في الحوش المكشوف أمام المسكن ذى الحجرتين الصغيرتين في الدور الأرضى .

وبكت فأخذها في حضنه . أحست بدفئه فاستسلمت للدفع . وغطت وجه القمر سحابة رمادية . وخلع سترته وفرشها لأسرار وأجلسها مثل طفلة . وجلس عند قدميها على الرمل . لم يكن لديها ما تقوله سوى الأنين . ولم يكن في الليلة شئ جديد إلا .. أنها .. صرخت من الألم ..

طيب خاطرها وهدأ روعها . وانكشطت السحابة الرمادية عن القمر وأخذ الرمل يبرق في عينيها كأنما غطيت حباته بالندى ، وعضته في زنده عضه

شديدة تأوه لها وكاد يصرخ . فعلت فعل هرة جريئة هاجمها حيوان أقوى
فغمغم بكلماته الممضوغة :

— عيب .. نحن من الآن زوجان .. وغدا نسجل العقد ..

وبعد بضعة أيام غدا كل شيء مألوفا ..

ثم قال لها : إننى سأعرفك الليلة ببعض أصدقائى .. وهم شابان وربما ثلاثة
من لا يعجبهم حال الدنيا مثلنا .. وستكلم هناك بلغة جديدة ستتعلمونها ..
ليست لإحدى اللغات الشهيرة ولا غير المشهورة .

الشقة فى حارة جانبية فى حى البنوك والمتاجر ومكاتب المعاملات وسط
المدينة .. هناك يظل الصمت بعد الساعات الأولى من الليل .. وفى أيام الآحاد
تبدو الشوارع وكأنها خراب .. خصوصا ليلا .. ولذلك كان الاجتماع دائما
يوم الأحد .

ذهبت فى صبحته . قلبها يدق . شمت رائحة قريبة من رائحة ورق النقد
القديم وهلة أن دخلت الشارع . وكان هو متأبطا ذراعها بحرص يبدو مبالغا
فيه وطلت أذنهما كأنما صب فيها شيء : « غدا نسجل العقد » .. وواصل
السير ثم انخرقا . كانت هناك لافتة كبيرة تحت ثلاثة شبائيك كتب عليها بخط
مبالغ فى تكبير حجمه « معهد تعليم الآلة الكاتبة » رفع أنور رأسه إلى النافذة
وابتسم ونظر إليها . لم تفهم شيئا إلا أنهما سيدخلان هنا . وصعدا الطابق الثانى
فى هذه العمارة القديمة ذات الحجرات الواسعة . ثم وقفا يطلان على الظلام .
وما لبث أن جاء أحدهم وقدمه أنور إلى أسرار . كان فى لون شبه خلاسى
ويلبس نظارة حالكة السواد جعلتها تعجب كيف يرى الظلام بالظلام . وسلم
فى تأزم ، كأنه يعانى ثم جلس الثلاثة . لم يتكلموا . مما جعل الفتاة تزداد عجبا
وخوفا .. وكانت الحجرة مليئة بالآلات الكاتبة . على بعضها أوراق وبعضها

فاض تماما . وهناك مناضد وأنايب حبر وأوراق مهملة ملأت أرض
الحجرة . وسألت الفتاة أنور .. « إلى متى سنظل » ؟ .. ونظروا في الساعة
فدق الجرس وجاء أحدهم .

وبعد قليل جلس الشاب الوافد والآنسة أسرار إلى ماكينة الكتابة وليس
عليها ورق .. ووقف خلفهما وقال لهما :

— ستتعلمان لغة التلغراف . كل عدد من الدقات يمثل حرفا . وهذه هي
حروف الماكينة ندق عليها في فراغ أو نضع ورقا بلا شريط .. هذا لا يهم ..
فلنبدأ ..

* * *

« ثم عرفت المقصود — بمرور الزمن — يا صلاح » ..

واستطردت أسرار :

دافعت عن الحرية بطريق غير طريق القلم كما قلت لك .. وفقدت في سبيل
ذلك أشياء غالية .. وتغيرت أنا ولم تتغير الدنيا التي لم تكن تعجبنا .
فبعد أن يخلو المكتب من الناس كنا نجتمع ونتكلم بلغة التلغراف في
الظروف الحاسمة إذ كنا نتصور دائما أن أحدا يسمعنا . وكان أحدا يترجم
الدقات إلى كلمات .. معه ورقتان . فيكتب كلمة في كل ورقة على التوالي
بحروف مقطعة ، ولكي نفهم نضع الورقتين أمامك وتقرأ كلمة من الأولى
وبعدها كلمة من الثانية أما إذا قرأت كل ورقة على حدة فإنك لا تفهم شيئا ..
كانت ليالى يغلفها الخوف . خوف داخلي وخوف خارجي . وكنا نضع
علامات معينة على باب المكتب الذى يحوى منشوراتنا لنعلم صباحا ما إذا كان
قد فتش بالليل أو لا . كنت آخذ شعرة من شعري وأفيد رزة القفل بها من
الناحيتين ثم نفحصها في الصباح .

مد صلاح يده إلى شعرها وغمس أصابعه فيه وقال فى ألم :

— هذا الشعر الفاحم الأسود.. ساهم فى كل هذا؟!.. رئيس الحزب الذى كنتم تدبرون اغتياله.. خدعكم.. ها ها ها.. مات قبل أن تنفذوا المشروع فهل أعاد موته إليكم حريركم أو قد أخذها معه إلى قبره.. وأنتم مع هذا قد تشتمت. لكن لماذا لم تتزوجى أنور؟!

— سلبنى ذاتى باسم الحب. كان أقوى فخدعنى.. كنت مثل زجاجة مملوءة بشراب فأراقه وتركها فارغة.. لم أعد أنا أنا.. وحين دق جرس الشقة فى وقت متأخر ونحن مجتمعون لم يذهب إلى الباب سوى. كان هناك رجل يرتدى معطفا وجلبابا عرفت منذ الوهلة الأولى أنه من أهل الفن.. زمار مثلا فى فرقة موسيقية من شارع محمد على. أسنان ذهبية وأوداج منفوخة. لكنهم خافوا وحسبوه من رجال الشرطة.. وكان يسأل عن فتاة له تتعلم فى المكتب ولعلها تأخرت أو حدث لها حادث فى الطريق.. ولما عدت إليهم وجدت حبيبى مغمى عليه.

— رأيت الأستاذ أحمد رشاد وحوله رجال يعملون فى دائرة المعارف.. كانوا يعرفون الحرية.. فليعرفوها كنا يشاءون.. ليفعلوا ما يفعله العلماء فى تعريف الشعب والجوع حين يتكلمون عن عصارة المعدة.. الشعبان لا يعرف من أسباب شيعه إلا أنه أكل.. والحر لا يعرف من أسباب حريرته إلا أنه لا يخاف.. وإذا كان السبيل إلى الحرية أن تتكلموا بلغة التلغراف فهذا عيب الطرفين.. السالب والمسلوب.. آه يا عزيزتى.. إذا ما كان الباب مفتوحا فلا أحد ينظر من ثقبه، وإذا ما كان الصوت عاليا فلا أحد يتسمع..

تأوهت أسرار.. ذكرت ماضيا أليما.. ماضيا.. لم ينتج غير الهيام على الوجه.. وسقوط كثير من المقدسات التى ترمز فى بساطتها إلى معانى عليا كما

ترمز المسيحة إلى الله .. ثم مسحت دموعه وهى تضحك دائماً وقالت :
— كان يقول لى : لا تيأسى .. لا تتضررى مما نحن منغمسون فيه . حتى
ولو كنا لا نؤمن بشيء . حتى ولو سبحنا فى مستنقع .. فعجلة العربة تحمل
الأرواح على إطارها فى سبيل وصولها إلى نهاية الطريق . لكنها لا تبالي .. فهى
تنفضها عنها كلما قطعت شوطا .

وكان يشعر أن رباط الرذائل أقوى رباط .. لأن الرذائل تعريفها بسيط .
أما الفضائل فعمقتها إلى أعلى ..

وهو بعد هذا قد منحنى فضلا لا أنساه له . فقد سجل زواجى وطلاقى فى
ليلة واحدة . وبين الورقتين يومين فى التاريخ . ومد يده بالأولى قائلا فى عدم
مبالاة .. خذى صك العبودية . ومد يده بالثانية قائلا : وهذا صك الحرية ..
— أنتم مثل العالم الذى عشت فيه عدة ليال فى قاع سفينة .. ظلام وضيق
تنفس . أضخم أنواع الأشجار هو ما كان تحت أسطع شمس .. آه يا أسرار ..
إننى أحلم . ففى قرية أبى أرض خصبة .. فلاحون يمحسون أعواد الذرة
مستلذنين عصيرها كقصب السكر . أريد أن أحدث هؤلاء عن حريتهم فماذا
أقول لهم . إننى أراهم مثل الأطفال . يجب أن نخلع عنهم ملابسهم فى الوقت
الذى نلبسهم فيه غيرها . فى عملية مزدوجة دقيقة وإلا .. مرضوا ..

نظرت إليه الفتاة بعينين أجهدهما السهر وقالت له :

— حظك سعيد (وحققت) .. تقابل ألوانا مختلفة من بقايا التجارب من
مثلى ومثل البدوى السيد .. ماذا كان يحدث على رأيه .. لو عدلوا اسمه وجعلوه
السيد البدوى .. (وشردت بعينها .. فقد تذكرت ماضيها وهى طفلة) ..
آه .. ولا تنس يا صلاح أن الدنيا لا تعجبك أنت الآخر ولكن لك تفكيراً غير
تفكيرى .. أحس أننى شبت تفكيراً وأريد أن أسكت .. ولماذا لم يخلق الله
(للزمن بقية)

— ١٤٦ —

للذهن مثل جفون العيون .. كان يمكننا إذن أن نغمض أذهاننا (هـى هـى ..) لكن إيقاف التفكير يحتاج إلى أن ندمن أشياء كريهة منها ما يتناول بالفم ومنها ما يتناول بغيره .. فطبع .. ثم لحظة صحوة واحدة توازن دهرًا مما يفعله الإدمان من هدوء .. جربتها وعرفت أنها مليئة بالعذاب ، وأرجو أن أعيش حتى أرى ما ستفعله بوضوحك وما سيفعله البدوى بعصاه التى يتأبطها ويقطع بها شوارع القاهرة مثل قائد فرقة موسيقية مات كل أفرادها .. وبقي هو .. هو .. والعصا .. وداعا .. متى أراك ؟

هـز صلاح رأسه قائلاً :

— العلم عند الله .. وعندك ..

وخرجت تجرى ..

القسم الثاني

١١

كوبرى طلخا وأيام الصبا الأول .. وذكرياته ..
كلها الليلة تهب على صلاح النجومى وهو يعبر عائداً إلى قريته .. رجل فى
عنفوان القوة .. النهر يجرى من تحته كما حدث منذ أكثر من عشر سنوات ..
ليلة ألقى بالصحيفة المسائية إلى التيار .. ليلة اكتشف أنه رسب فى الثانوية .
الكوبرى قائم بأقواس الصلب .. وقمر وضوء .. وفى أنفاس الليل
بعض روائح مما فات . والقمر والصمت . يراه الآن على مياه بحيرة المنزلة .
ووقوفة طيور غريبة فى الحلفاء والغاب ، والطبيعة على البرارى شديدة الجمود
.. جمالها فى تبرز غجوى وقسوتها وحشية . وصلاح يحس وهو يقطع الطريق
إلى القرية أنه مثل رجل مكلف برد الذاكرة إلى عزيز فقدها ..
خيال إليه أن هذه (المناظر) لم تعد تعرفه . اللغة الصامتة التى نخطب بها
الأشياء حتى لا ننكرها لم تكن متكاملة لديهما الليلة . اختص بها شارع الخليج
ذو الظلام والمتعرجات وصبار البدوى ورخامه ومعال ميدان باب الخلق .
ولم تلبث القرية أن لاحت له .. وتهد ..
« ماذا يريد أن يقول القلب » ..

هذه هى الربوة والنصب التذكارى لمظالم قديمة . نخلة أحرقت صغيرة .
وبقى هيكلها كزنجى مقهور . ومقابر على الضفة الثانية فيها يرقد أبوه بكل
أساطير الغموض ، ويرقد محمد الجندى بكل خيالات الطموح والحب

والطفولة والحرية العزلاء التى حمت نفسها بصدقها .

وبدا القنديل على باب الدوار يتمرجح .. كأنه لم يكف منذ تركه كبنديل ساعة يحسب للقريبة مرور الزمن فى خمول . تذكر معه صلاح بندولا آخر رآه كثيرا فى دائرة دار المعارف تحته رأس سقراط .. ونظر صلاح إلى الليل والريف وأسوار الحظائر الممتدة فوقها كلاب تلهث فى صمت ، ثم نظر إلى الدور الطينية وإلى المقابر على الضفة الأخرى وأحس كأنه يحمل كل هذا فوق ظهره ثم همس لنفسه : « يا الله .. ماذا سيحرك كل هذا ؟! » .

وعادت العربة التى كان يركبها تقلق سكون الليل .. رجعت .. ودخل هو إلى الدار .. كانت رائحة البن المحمص حديثاً تملأ جو المكان . وهناك رائحة نعناع كذلك لكنها أقل درجة .. وليس فى المكان رائحة خصومات . أصوات تدرج فى رتابة تدل على السمر ، وابتسم صلاح فهو يعلم أن شقيقه جعل أهل قريته يفضلون الصمت على الشكوى ثم تعودوا ذلك بمرور الزمن فأصبحت نظراتهم مكبلة . وهو يحلم بأن يطلق سراحها .

وترددت نحية طه مع ابتسامه لا تخلو من الجاذبية : « أهلا .. صلاح » . واحتضنه وقبله فشتم صلاح من ملابس أخيه رائحة عطر فاقع . وجلس ولا يزال وجه أخيه باشا له . وآره صلاح بادی السمعة بادی الرخاء .. وجهه يدل على أن عنده سندرات ملكية لا حصر لها ..

وكان فى المجلس الشيخ المأذون وشاب جاوز الثلاثين نحيف الجسم ضئيل القامة يقول عنه الفلاحون أنه لا يعرف الله .. أما طه النجومى فكان يعتبره من الصالحين ما دام أنه لم يرق دم إنسان .

كان الحديث عاما والشيخ يتكلم عن الحرام والحلال بمناسبة حادث

طريف وقع في القرية من أسبوع مضى ، وهو أن غريبا دخلها وظل يدور في الحارات والطرق وبنادى « أبيض النحاس و أبيض النحاس » .. وجمع عددا من الأواني وأخذها واختفى ..

وهرع الفلاحون إلى دوار طه النجومى يشكون فى خجل وكان بعضهم يضحك . وقهقه العملة من غفلتهم فكيف يخدعون !؟ ..

ولم يعلق صلاح على ما يدور حتى بدا غريبا . ثم فاحت رائحة القهوة فحملق الشاب إلى من يقدمها حين تذكر رجلا كان يحبه .. ولم يطل الجلوس بهم فقد انصرف الشقيقان إلى البيت ..

بدا الشقيقان فى اليوم التالى وكأن رابطة ما لا تجمعهما ، كأن الليل قد قطع ما بينهما من أواصر حتى تطرف صلاح فى خيالاته وأكد لنفسه أنه هو وأخوه لا يزيدان عن فرخى دجاجة احتضنتهما الأم بعد الفقس حتى عرف كل منهما كيف ينش الأرض .. وانتهى الأمر .. وتهد صلاح . فقد كانا يتناقشان وقال فى نفسه : « هذا فظيع » على حين كان صوت أخيه يقول بنبرة عالية :

— أنا لا أعرف ماذا تريد ؟ أنت ضيعت شبابك وأخاف أن تضيع مالك .. وما للفلاحين الذين تكتب عنهم ؟ هل يحس الحصان بزهو إذا رسمت صورته على جنيه من ذهب !؟ .. كأنك لست ابن فلاح .. لقد جربتهم أنا بطريقة أحسن من طريقتك .. واسأل الشيخ المأذون .. أنت لا تعرف عنهم شيئا ..

— ماذا جربت !؟

— هل تذكر عبد المعطى التركى ؟

— نعم .. فلاح وليس تركيا . وأمهر شاب في عمله ..
 — عال .. هو نفسه .. واسأل الشيخ المأذون .. إنه لا يأكل اللحم إلا في
 المآتم والأفراح وبعض المواسم والأعياد . وهو قوى يحب عمله ، ولأجل خاطر
 كتاباتك عملنا تجربة .. أعطيناه ما يجعله يأكل اللحم مرتين في الأسبوع
 ويشترى الفاكهة والسكر ويدخن كيف يشاء .. (وضحك طه) هل تدري
 ماذا حدث ؟ كل صباح كنا نراه يستحم في التربة .. وأنت تعرف لماذا ..
 ويتأخر في النوم .. وأنت تعرف لماذا .. وبدأت زوجته تتلوى وهي تمشى ...
 وارتفع صوت أولاده ، وبدأ شبه (محلول) .. ها ها ها ..

رد صلاح في دهشة :

— لأنه مثلا .. صار في حكم أى ثور .. من حقه أن يملأ بطنه ليحجر المحراث
 . ويفرز عرقه ويشتهي بقرة ١٩
 — ماذا تقول يا أخى ١٩

فغرطه فمه ، كان مدهوشا . كان وجه أخيه كوجه خصم لدود .. لم يعهد
 ذلك من أحد .. لم ير عينا تحملى فيه ، وخشى طه أن يثور فعاد يهمس في
 نصف وعى وكأنه يحلم :

— على كل حال .. اسأل .. الشيخ .. المأذ ..

قاطعته صلاح صارخا :

— وأنا مالى .. إنه شاهد زور أو منكر للشهادة .. أنا ..
 فقاطعته فورا بإشارة من يده .. أدرك فورا أن النقاش عبث وأن خير وقاية
 لكرامته أن يرى سر حضور أخيه .. وكان واثقا أنه لن يلتقى معه في فكرة ..
 وعليه أن يغشه (من وجهة نظره) فصمت طويلا حتى أدرك صلاح أنه ربما
 جاوز مع أخيه الكبير حد التقاليد فهمس :

— آسف ..

رد طه بلا مبالاة :

— لماذا ؟! .. « لكم دينكم ولى دين » .. آه .. (وفرك كفيه) مات الرجل الذى كنا لا نستطيع رفع رموشنا أمامه .. والدنا .. رحمه الله .. وأنا .. آه .. أريد أن أسمع كل ما تطلب ..

ولم يطل الصمت بالشاب .. استرد أنفاسه كمقاتل ماهر .. لكنه لم يستطع أن يرى ما وراء ملامح أخيه .. غير أنه لم يكن يبالي بكل هذا فقد قال له :

— أنا أعيش فى القاهرة عيشة بسيطة .. ولى دخل من قلمى ..

— مبروك ..

وتغافل الشاب عن لهجة السخرية الغامضة وكأنه لم يسمع شيئا وظل يتكلم :

— حزب الفلاح الذى كنت أعمل فى مجلته ظهر أنه حزب مغشوش (وتلاعب على فم طه ابتسامة لم يرها أخوه) وصاحب المجلة كان غشاشا .. ورحت أنا وصديق لى ضحية الغش .. — هذا يحدث كثيرا .. لا بأس ..

— ليس مهما . المهم أن صاحب المجلة الجديدة أصيب بمرضين أحدهما الشيخوخة والثانى الغنى الفاحش .. (فحملق فيه أخوه لكنه لم يكن متبها له) وكلا المرضين كانا سببا فى استدعائى أنا وصديقى .. وهو صحفى أديب .. أب لى .. وأخ لى .. وقد عرض على أن أشتري رخصة المجلة ودارها .. ووافقت ..

لم يرد أخوه الكبير .. ظل فترة يعض لسانه أو يلحق شفته أو يقضم

أظافره . وكان ضيق الصدر لكنه أحس أنه أمام حماسة في خيالها أنها قادرة على تجفيف بحيرة المنزلة بيد واحدة . أما صلاح فكان يتذكر ما قاله البدوى وهو مسافر : « ستشعر بالغربة .. لا قرابة إلا قرابة الأفكار .. حتى ولو كنت أنت صلاح النجومى وكان الثانى محمد الجندى .. مع السلامة » ..

* * *

وفي المساء كانت الأعصاب أكثر هدوءا .. وكان طه النجومى قد أقنع نفسه بما يجب أن يفعل ..

كان صلاح طول النهار يجول فى أنحاء مزارع أخيه فارتاح لما رأى .. كانت هناك قوى بشرية تعمل كجن سليمان .. فقد اهتدى ذلك الفلاح القادر إلى مشروع جديد هو حفر خنادق عميقة حول أرضه فى المناطق التى لا تزرع ومن طين هذه الخنادق بعد خلطه بالرمل أصبح يملك مصنعا للطوب المحروق . وعن طريق هذه الخنادق كانت مياه الصرف تجد مسربا .. فأخذت الأرض الزراعية فى استرداد صحتها .

وكان النهار حارا نوعا . ومشى صلاح دون مظلة فالتهب وجهه ، وعندما واجه هؤلاء الذين يعملون بسيقان معروقة وأيد فى جفاف الخشب أراد أن يكلمهم .. لكنهم نظروا إليه كشخص غريب .. لم يعرفه إلا الكبار ، أما الأصغر سنا فقد عرفوه من سحنته .

وكانوا يغنون .. ومدخنة إلى ناحية الشرق لمصنع حرق الطوب وأخرى إلى الغرب لمخبز بناه النجومى لهم .. ورائحة القمائن المشهورة تختلط برائحة الخبيز كلما هب النسيم .. ومعه غناء .. أشبه بابتهاال المرضى .

وقف صلاح لا يتكلم .. وحز فى نفسه أن الذين يعملون استحقوا أنفسهم وبالغوا فى العمل كأنهم توهموا أن صلاح جاء ليلقى عليهم نظرة بدل أخيه المشغول .

— ١٥٤ —

كان ذلك كله وقت الصباح وقبل أن يلتقى الأخوان فى المساء ثانياً ..
وكان صلاح يفكر فى كلمة يقولها لهؤلاء الناس وعندئذ اقترب من رجل
مسن نوعاً ما وكان يحفر ، ثم خرج إلى سطح الأرض لقضاء حاجة .. وقابله
صلاح وسلم عليه .. ناداه الرجل باسمه .. فقال صلاح :

— هل لا زلتم تذكروننى ؟ ..

ابتسم الرجل فى طيبة ومسكنة .. واكتسح عرقه من فوق جبينه بسبابته ثم
نثره فى الفضاء وقال ووجهه مكرمش من الابتسام :

— طبعاً .. لكن .. كيف نسيته .. أنا جار المرحوم ..

هتف صلاح :

— جار محمد الجندى ..

هز الرجل رأسه باعتزاز كأنما اكتشف صلة قربنى تربطه بهذا الشاب ..
ووقف الاثنان صامتين كل منهما يستزيد مما تفيض به ملامح الآخر من مودة
تزايد بتناول الوقفة . حتى قال صلاح :

— يرحمه الله ..

— ويرحمنا ..

— صحيح .. الرحمة للميت والحي ..

— والحي أولى ..

تلعثم الشاب وهم الرجل أن يمشى فاستوقفه ، وتلفت الرجل ووقف فقال
صلاح :

— ما رأيك يا عم .. لو أخذتك معى إلى القاهرة ؟ ..

نظر الرجل بإدراك من لا يخدع وقال ووجهه مكرمش تماماً بالابتسام :

— إن شاء الله .. بعد أن يتم نقل هذه الأرض إلى القاهرة سأحضر

وراءها ..

— لست فاهما ..

— بعد أن تتحول إلى طوب محروق وتصبح المباني الجديدة هناك أصلها من أرضنا .. ربما يمكن عند ذلك ..

وقهقهه .. ونظر صلاح فإذا به يحمل في عبه رغيفا طازجا . أخرج الرجل بلا وعى وقطم منه قطعة . ثم بدا عليه أنه تذكر شيئا فأعاده إلى حيث كان وعندئذ قال صلاح :

— لماذا لا تأكله؟ ..

رد في غموض :

— بلا غموس؟ .. ها ها .. متأسف إنه هو الغموس يا سى صلاح .. أين أرضك يا جندي .. ها ها !! هاى .. ليس هذا خبزنا بل هو غموسنا .. هل تحب أن أغني لك .. ذكرتنى بما كان يفعله معك ذلك الرجل المرحوم .. كان يعجبنا كلامه .. يا ما غنى لكم ونسيتم .. أحسن رجل كان يعرف كيف يكلم الناس .. هل كتبت على قبره الآية التى أوصى بها ؟! ..

وفجأة تحول الرجل إلى مسخ غريب .. طفل رجل .. حزين نشوان .. حر عبد .. وأخرج الرغيف ثانيا وقطم منه قطعة .. وانطلق بلا استئذان إلى الخندق حيث يعاود الحفر .. وكان فى الطريق يغنى وفمه محشو بالخبز اللين وبصوت أجش مهزوز : « مسكين وحالى عدم من كتر (غلقانك) .. يالى تركت الوطن والأهل علشانك » ..

وظل صلاح واقفا تحت الشمس .. نسى نفسه .. كان ينظر فى الأفق كأنه يفتش عن المكان الذى يقطع منه الحبل الذى شد أخوه فيه هؤلاء الناس .. ورأى على مقربة منه شجيرة لعلها خروع .. فتذكر البدوى وحديثه .. وكان على أغصانها الخضراء ورقة بيضاء .. مبقعة بالزيت ، لعل أحد الناس أخذ منها

شيئا ورمى بها .. وبدأ الورق الأبيض والأخضر في نظرة واحدة أمام عينيه .
« فذكر طه » : « أى نوع منهما أكثر قدرة على تحويل مستقبل البشر ؟ »
فطه أخوه لا يؤمن إلا بالورق الأخضر لكن ليس ذا الخضرة الحية تلك التى
وهبها الله ..

كان ذلك كله فى ضحا اليوم ..
لكن الأخوين فى المساء كانا أهدأ من قبل .. جلس صلاح يتكلم :
— أعجبتنى مشروعاتك ..

هز طه رأسه فى غرور وترقب . واستطرد صلاح :
— لكن .. (وسكت) .

— تكلم .. ألا يسرك أن تكون مثلى ؟ ..
— وهل يسرك أن تكون مثلى ؟ !

هز طه رأسه بالنفى يعنى لا ..
هز صلاح رأسه بالنفى يعنى لا ..

ثم انفجر الأخوان ضاحكين .. وساد هدوء وعاد صلاح بعده يقول :
— قد يعجبني كلام الشيخ المأذون عن الحلال والحرام .. وقد يعجبني
ضحكك عن الفلاحين الذين خدعهم مبيض النحاس ومضى .. وقد يعجبني
مكسبك .. لكن ذلك فى نظري لا يزيد عن إعجابى بكتاب « الأمير » .
كان صلاح يقصد كتاب ميكافلى وهو يعلم طبعاً أن أخاه لا يعرف
ذلك . لكن هذا أفلت منه . وما لبث طه أن هز رأسه سائلاً :

— من من الأمراء تقصد ؟

قال صلاح بسرعة بديهية :

— الأمير عباس حليم ..

— ١٥٧ —

بدا على أخيه حبور مستتر فسأل برقة :

— والسبب ؟

— أمير يقول عن نفسه أنه صديق الفقراء ويرعى حزب العمال .. كما

يحتضن النعام بيض العصافير .. تصور .. (صمت) .

وعاد صلاح يفرك كفيه وينظر في أظافره ، واستطرد ذاهلا كأنه يحدث

البدوى صديقه لا طه شقيقه :

— كان شارع الخليج ترعة فيما مضى .. كانت الأسماك فيها يأكل بعضها

بعضا .. والآن .. أصبح فيه ناس .. يأكل بعضهم بعضا كذلك ..

وسعل طه من الدخان فانتبه صلاح .. سأل طه :

— ما هذا ؟!

— ذهول ..

— أنت في حاجة إلى طبيب .. أنت تتكلم عن أوهام في بالك لا بد أن

تذهب بك .. لا تزال أنت الصبي المندفع الذي كان يلعب بجوار الجندي وهو

يغسل عربات العمدة . (صمت طويل) ماذا تريد أن أعمل لهم . أنت تقول

وتكتب ولكنك هربت من معاملتهم في بحر سنتين .. (وبصوت عال)

عندي سؤال واحد سأسأله لك وجاوب عليه : « هل تطلب المساواة بيننا

وبينهم في الحياة أو في الموت ؟ » ..

فغر صلاح فمه وهمس :

— لست فاهما .

فأعاد أخوه عليه السؤال فأجاب الشاب في تخرج :

— طبعاً في الحياة .. الموت .. وما بعده ملك لله ..

فهرطه رأسه كالمتنصر وقال :

— ١٥٨ —

— عظيم يـم .. وصلنا . أنا سأعرض عليك مساواة أقل وأرخص تكلفة
ولا مشقة فيها .. ستساوى معهم فى الموت . وغدا .. وأنت هنا .. سأعلن
فى القرية أن صلاح أخى أجبرنى على نقل جثمان محمد الجندى من قبره ليدفن
إلى جوار النجومى الكبير فى قبره طلبا للمساواة . وعندئذ سنرى ماذا يقول
الناس ١٩

لم يفق صلاح بسرعة .. كانت أخذة مفاجئة . لكنه ما لبث أن تتم :

— ماذا تقول يا أخى ١٩

— الله .. قلبت دماغنا .. لنبدأ بالمساواة فى الموت أولا وبعد ذلك نفكر فى
المساواة فى الحياة .. السهل أولا ثم الصعب ثانيا .

— هل تتكلم جادا ١٩

— بشرف النجومى الكبير سأعلن ذلك صباحا فى القرية إذا وافقت .

وماذا تظن أن يحدث ؟

هز صلاح رأسه فى حيرة :

— لا أدرى ..

— أنا أقول لك : سيتجمهر فريق كبير من الفلاحين عند قبر العمدة لينعوا

وقوع مثل هذا الحادث .

ضحك صلاح فى أسى :

— تقصد .. ليحولوا بين محمد الجندى وبين الدخول ١٩

— أى نعم ..

وبعد صمت طويل قال صلاح :

— صدقت ..

فرد أخوه بنفاد صبر :

— انتهينا .. « غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون » . صدق الله العظيم يا سيدى .. ومن أجل خاطرك سأضيفها للآيات المكتوبة على قبر النجومى الكبير ليدخله محمد الجندى دخول محمد الفاتح ..

أطرق صلاح .. أخذ يفكر فى الحرية .. أصحابها المحتاجون إليها أحيانا يكونون أعداءها .. إن ما يقوله طه حق كله .. سيحدث كل هذا .. وسيتحول صلاح إلى أضحوكة .. وعاوده منظر شجرة الخروع فى الحقول الجرداء ودخان القمائن والمخبز . والورق الأخضر والأبيض ، وخوف الناس من بعض الحللى الإنسانية التى تعتبر ضرورة لحياتهم كما تهاب الريفية الثوب العصرى . وعندئذ قال صلاح :

— أخى . تعال نتفق .. لا داعى للفضائح .. فأنا شخصا لا أرى مانعا من أن يدفن الجندى إلى جوار النجومى الكبير .. لكننى أمانع فى نبش القبور . من أى نوع . حاول ألا تغضب .. وفى سره : « أين أنت يا أسرار !؟ فأنى أبلغ ريقى الآن وأبصق إلى الداخل » .. حاول ألا تغضب يا أخى .. « لكم دينكم ولى دين » . وأبى قد ترك لنا أشياء تقسم وأشياء لا تقسم .. الأرض .. وتقسم .. والخصال لا تقبل القسمة ولا التحويل . وأنا فى نظرك شخص مؤذ لا يمكن إصلاحه فحاول إبعادى عن الأعمال .. خذ نصيبى من الأرض وأعطنى الثمن ، ولن أضايقك بعد اليوم بشئ ..

عندئذ دخلت أمه تصخب وهى عجوز مريضة وقالت لطله بلهجة مثل لهجة طه :

— اسمع كلامه : أعطه ما يريد فالنصيحة بالنسبة إليه مثل النفخ فى الشبكة .. هل نسى ماذا عمل ليلة مات النجومى الكبير !؟ ..

— ١٦٠ —

وصرخت وانصرفت . وساد سكوت . ولم يدر صلاح لماذا أثر في نفسه
هذا أكثر من أى منطق .. أحس بخوف لم يجد له تعليلاً .. وتذكر ملابس التمثيل
التي كان يلبسها ليلة مات أبوه والظلام والهرج والمرج الذى صنعه طه بيديه .
وعندئذ برقت الدموع فى عيني الشاب .. ودخلت صبية بالقهوة ففاحت
رائحة البن .. عادت أحزانه أكثر كثافة .. ماذا جر عليه حب الناس ؟
وأطرق كأنه يحمل فوق رأسه حجراً رجا . لكنه تماسك . وأفاق على همس
أخيه :

— صلاح .. لا تخزن .. لك ما تريد .. سأشترى أرضك .. ولى من
الأولاد عدد يملأ البرارى ..

١٢

ودخل القاهرة والليل متأخر .. لم ير صلاح أنوارها تتألق هكذا من قبل .
كان يحس بفيض من السعادة يعادل أضعاف التعاسة التي عاشها في الريف .
« بعث الأرض واشترت الناس بعكس طه أخى .. رأيت بعضهم ينظر
إلى نظرة رثاء لأننى بعث ميراث النجومى . أما أنا فأشعر بأننى لم أبع إلا ألف
نير وليس في هذا ما يحزن » .

ونام هذه الليلة يحلم بأشياء كثيرة .. وانتابته مخاوف .. فسأل نفسه : ماذا
عسى أن يكون ؟ .. إنه في أسوأ حالاته سيكون مثل البدوى السيد ..
ولو حدث هذا فماذا يجرى ؟ إنه لن يكون تيسا حتى ولو فشل في فتح
النوافذ المعنوية لتلك الدور الطينية في القرى . فالمحاولة في ذاتها لذة . وهو ..
قد سمع وصف الجوع كما سمع وصف من يحتضرون ومع ذلك لا يستشعر
خوفا .

وقبل أن تشرق الشمس كان يرتدى ثيابه وطار طيرانا إلى منزل البدوى في
السيدة زينب . وطرق الباب طرقاته المعهودة فخف الرجل يفتح .. وتعانقا ..
ثم ابتعد كل عن صاحبه وعادا فتعانقا . وفي صمت وتودد وهمس بالتحية تأكد
كل منهما أن لو ألقى مع صاحبه في (بئر يوسف) ما خاف . كل منهما بالنسبة
للآخر مثل حبة العين . النافذة التي نحملها ونرى بها الدنيا . عزيزة ولو رأينا
من خلالها المآسى .

كان أمام البدوى ساعة دخل صديقه كوب من اللبن وكسرة من الخبز
(للزمن بقية)

البائت وجنبهما سيجارة أطفئت بعد احتراق نصفها لتشعل فيما بعد .
وكتاب سميك . ودواء صنع محليا يعنى فى المنزل .. من كتاب طب قديم ..
وجلس الصديقان . قال البدوى بهدوئه المعهود بعد أن نفخ أنفه :
— تناول فطورك ..

تبسم صلاح وهز رأسه مستفهما « أين هو ؟ » فقال صديقه :
— إن شئت اشرب اللبن كله وإن شئت قسمناه . (وبعدم مبالاة تماما
وبضحكة) ما بقى منك يكفينى .. وما لا يبقى منك يكفينى أيضا ..
تهند صلاح . ذاق طعم القلب الإنسانى حين ينثر شهبه على أمر الأشياء
فيحليها .. ونهض فأثى بكوب فارغ وقسم اللبن . وجرحه مرة واحدة ثم خرج
مسرا فاشترى أشياء أخرى تؤكل وجلسا يتحدثان . قال صلاح : وجدتيا
كما تركتها .. وجزعت من خوف بعض الناس من ثوب الحرية . كم وددت أن
تكون معى يا أخى لترى الصعوبة التى على الأشياء .. شر الناس فى القرية
لا يقول الحق وخير الناس فى القرية لا يقول الحق . لماذا ؟! .. أخبرنى .
— لأن الحق سيستخدم أكبر عدد ممكن من الناس .. وشر الناس لا يستفيد
من هذا .. وخير الناس يخاف من شر الناس ..
وبعد صمت قال صلاح فى دعاة :

— منذ اليوم أصبحت موظفا عندى .. فإننا سنقابل الأستاذ التهامى
ونشترى المجلة الجديدة .

لم يحدث ما كان صلاح بانتظاره . لم يحدث أن نهض البدوى وثبا ليقبله
ويهنئه ولم تبدر منه بادرة غير عادية . لكنه نظر إليه نظرة باسمة . ولم تحجب
النظارة نداوة عينيه اللتين كانتا شبه مغروقتين بدموع .. وكان فى يده مطواة
يقفلها ويفتحها سلاحها لأمع .. وأخيرا قال له :

— آه يا ابن النجومى .. بدأت مرحلة المصاعب الحقيقية فى حياتنا . كنا نرتع مثل الأبناء وآن لنا أن نكدح مثل الآباء . وسيكون أبنائنا آلافا يتحلى معظمهم بالعقوق . يا ابن النجومى خفف من فرحك .. هل تعلم لماذا خص الله الأنبياء بالرسالات الكبرى ؟ ..

هز صلاح رأسه واستطرد البدوى :

— ليس لأن الرسالات كبرى فقط ولكن لأنها تحتاج إلى أنبياء .. هل تفهمنى .. الأذى والذم ومناوشات الندم أهم علامات للرسالة العظيمة . فمن تكون يا ابن النجومى ؟ .. لعلك لا تزال تحلم بالشعر المكسور والشعر الأصفر وفتيات السابعة عشرة على كوبرى طلخا .. ها ها . قبل كل شئ وطن نفسك على الجروح ثم . من سيكتب معك ؟ .. الشبان المتحمسون أو الشيوخ الناضجون أو هما معا . وقد قلت إنك ستكون مستقلا عن كل حزب وعليك إذن أن تتحمل الخسائر .. فالورق الأبيض لا يكون له وجود إلا إذا حملة الورق الأخضر ..

ضحك صلاح قائلا :

— رأيت ذلك على شجرة الخروع فى الحقول الجرداء .

لكن صديقه لم يكن يسمعه ، كان مستغرقا تماما فظل يقول كمن يدلى بوصية أخيرة :

— وأنا أعلم أنك لست طامعا فى الربح ولكن لا بد أنك طامع فى الاستمرار .. وهنا المشكلة .. وعدد المتحمسين فى القرى قليل .. والعاصمة كما ترى .. حسناء ذكية لكنها مخمورة .. وأبنائها ينتظرون المعجزة .. معجزة أن تتحد الأحزاب وتسعى بإمكانياتها الفكرية والمالية إلى رفع الحصار عن الريف ذلك الذى لا يفرق كثيرا بين الذرة والذرة .. والذى دفنت فى ثراه . كنوز المستقبل ..

قال صلاح في خمول :

— أفسدت فرحتى فى يوم عيد ..

— ما دمت قد رفضت مقدما أن يتبنى صحيفتك أمير أو نبيل أو حزب
فعليك أن تقدر وزن المخاطر .

— أنت على حق .. ومع ذلك ..

— ومع ذلك سنقول كلمتنا . والمصاريف علينا هى هى .. ولن تفقد
نفسك إذا عرفت مقدما أين ستقف .

فقال صلاح :

— هل سنفقد أكثر مما فقدته السيدة أسرار ؟! أظن لا يا صديقى ، هل
ستكون نهايتنا النفسى فى جزيرة معزولة والعمى والحنين مثل عراى
والبارودى ؟! .. أظن لا يا صديقى .. وعندما نفقد كل شئ ويبقى الضمير
فسينبت الريش من جديد ..

ومد صلاح ذراعه ورفع صديقه من تحت إبطه كأنما يستعجل فيه قواه التى
يأمل منها كثيرا . وما لبثا أن كانا فى الخارج عصا الأول تحت إبطه وخطا
صلاح تسبق خطا البدوى .. فى الطريق لإتمام الصفقة .

وظهرت « المجلة الجديدة » مرة أخرى بعد بضعة أشهر وإنفاق آلاف .
جلس صلاح النجومى على مكتب الأستاذ التهامى وجلس صديقه فى حجرة
مجاورة لا تخلو من الأناقة . وكانت الصحف قد نشرت عنها عدة إعلانات فهم
منها أنها ستحرس مصالح الفلاحين بعيدا عن حزب الفلاح ..

وكان العدد الأول قد حشدت له جهود . خبرة وحماسة ونفقات . وظل
صلاح طوال النهار والأيام التالية يرد على محادثات الإعجاب من نساء ورجال

مجهولين أو معروفين . وكان صلاح قد كتب في العدد الأول بعنوان « ضمير الأرض » .. وتكلم بخبرته كفلاح عن أن الزراعة منذ قديم تحتاج إلى نوع قاس من السلوك ، فما بالناس لو زرع (الواحد منا آلاف الأفدنة) ..

وكتب الشعراء في الفلاح والتعاونيون عن الفلاح ، والاجتماعيون كذلك . وأخيرا .. حل غلاف المجلة بصورة من القرية . امرأة تحلب بقرة مهزولة وحولها ستة أطفال كل طفل منهم يمد يده بكوز فارغ إلى أمه التي لا تزال تحلب والبقرة لاوية عنقها نحوهم تنظر إليهم شزرا .. والكل مظلومون .

ودخل موظف حديث السن على صلاح النجومى يحمل مجموعة ضخمة من الرسائل لا تقل عن مائتين كلها من ريف المنصورة تهنىء وتطلب المزيد . كل هذا من أول عدد . ثم مضت الأيام وقال (التوزيع) إن العدد قد نفذ تقريبا .

واستطارت الفرحة قلب صلاح . وابتسم له البدوى فى هدوء وقال بوجه محمر نوعا : « تمنح لا تزال .. » .. قاطعه صلاح وبصوت لا يخلو من الحدة : — لقد أصبح همك الآن أن تبث الخوف فى قلبى .. لا تفسد علينا الفرحة أيها الرجل .

وخرج البدوى فى هدوء حيث جلس مشغولا تماما كأنه يبنى الدنيا بيديه .. ولم يدر صلاح لم وثبت (أسرار) إلى ذهنه .. غابت عنه فى المشاغل .. منذ شهور لم يرها ولم يسمع عنها وحتى بعد صدور المجلة وتحقيق هذا النجاح لم يسمع لها صوتا .. ثم خيل إليه أنه يسمع وقع حذائها . وكان أحد الموظفين فى الخارج يناقشها فى أمر الاستئذان عليه .. غير أنه ما لبث أن رآها تفتح الباب بصخب ودخلت .. ضحكها المطلقة وفمها المفتوح وجذعها المائل المهتز ..

وبشاشتها التي لا تبالي كأنها مستعدة لأن تحضن من تصافحه .
وتعانقا كصديقين . وجلست أسرار مستغرقة في ضحكك ينقطع ويعود
كأنها لا تصدق ما ترى . ثم أشارت إليه بأصبعها تقول :
— أنت؟! .. صلاح النجومى؟! .. هنا .. على نفس الكرسي الذي كان
يجلس عليها التهامي؟! .. مجنون من يستغرب فعل الزمن ..
— هل هذه تهينة؟! ..
— ربما .. لكن .. آه ..
وصممت قليلا . وضعت كفها على جبينها ثم أسفرت عن وجهها وقالت
له :

— اطلب لي قهوة وهات سيجارة .. وسأتكلم .. آه .. شكرا .. لدخانك
نكهة أعرف مذاقها .. (وأبرقت بعينها) .. آه يا ابني العزيز .. لقد رأيت
صديقك البدوي مهموما .. كأنه كلف بنقل الهرم الأكبر إلى ميدان عابدين
.. تخفيفا على السياح .. هـى هـى .. لكن . حقيقة عدد ممتاز .. ليس فيه
إلا عيب واحد وهو أساسى فى نظرى ..

نظر صلاح إليها فى فضول واستطلاع شديدين :
— قولى يا أسرار .. ليس بيننا كلفة ..

— طبعاً .. عيبه أنه ليس تابعا لأحد .. وخال من النفاق .. ليرحمك الله ..
واستغرقت فى الضحك فكاد صلاح أن يثور .. أحس لأول مرة فى حياته
أن كلمات كثيرة تضايقه . ثمانين فى المائة من الكلمات لا يدخل على نفسه
السرور . لم يكن هكذا قبلا . حتى الأوقات التى يقضيها مع البدوى لم تعد
فى طلاقة أوقات (ما قبل المجلة) ولا صفائها .. كاد يضحك .. وكانت أسرار
تنفخ الدخان فى وجهه .. شعر صلاح أن المرأة قادرة جدا على إرسال أى كلمة

جارحة أو شجاعة أو صادقة أكثر من الرجل . فسأل نفسه لماذا .. وعادت أسرار تقول :

— ماذا يساوى المال فى سبيل ما تفعل ؟ وماذا يساوى المال إذا قسته بما فقدته فتاة مثلى ؟ لكن لا بد أن يكون شعار مجلتك التبعية والنفاق وإلا .. توكل على الله وأفلس ..

— ألا ترين كل هذه الخطابات ؟ .. كلها إعجاب وتأيد ..
— ممكن .. لكن .. الشهود شئ والمحكمة شئ آخر .. قد يكون الشهود عدولا والقضاة ظلمة .. الحق يا ابنى مثل النور .. يحتاج إلى مصاريق .
قال صلاح فى عدم ارتياح :

— كلكم تلوموننى .. كأننى أجرمت ..
— بالعكس .. ياما صفق التاريخ للمجرم القوى .. ولا تنس أن بعض أتباع المسيح سلموه بعد العشاء الأخير عندما طلبته السلطة للصلب .. وعلى كل حال منظر البقرة الساخطة على غلاف المجلة أعجبنى .. اضحك يا صلاح ..
خذها ببساطة فكلنا بقر ساخط ..

نفخ صلاح ثم سكت .. وهرش رأسه ثم قال :
— أين كنت طوال هذه المدة ؟ .. مجرمة .. فصول السنة أربعة .. وأنت الفصل الخامس من العام . يأتى بلا ميعاد وليس له طقس ثابت ..
هتفت برقة مفاجئة :

— أوحشتنى ..
— ومن كان موضع (سأمك) فى هذه المدة . بذمتك ؟!
تأوهت وهى تشعل سيجارة جديدة :
— آ .. سأزوج .. (ونطقت الجيم معطشة فى لون من الدلال كطريقتها

حين تقول له يا ابني) .

سكت صلاح طويلا ونظر إلى السقف . كان يرق بطلاء زيتي قديم فيه بحيرة مطموسة وقارب لم تعد أدوات عومه ظاهرة من الزمن . وخيل إليه لوهلة في عمق الدهر أنه يسبح مع أسرار في هذه البحيرة .. وفجأة انتفض وشعر بقشعريرة . اصطكت أسنانه وتحسس جبين نفسه فإذا به محموم . ولاحظت أسرار ما حدث .. ووضعت خدها على خده لتعرف مدى الحمى وعندئذ نبهته إلى أن يقوم ليستريح .

كان الأستاذ البدوي هو القائم بمهام المجلة طول بضعة أيام ، كان صلاح خلالها في شبه غيبوبة . كان يعلم أن هذه الحالة تعبير حاد عن القلق .. وكانت أسرار تسهر إلى جواره طوال ليالي مرضه . ومن الغريب أنه كان لا يهذى .. كان يشعر بثقل عنيف ، عذابه كان أشد من أى عذاب ، فقد ظلت أحلامه طوال هذه المدة تدور حول شيء نادر هو كما قالت أحلامه : « إن حكما صدر ضده من رجال ملثمين يرتدون ملابس الريف ويجلسون على منصة ، ومنطوق الحكم أن يصلح صلاح النجومى أرض البرارى وحده . يجفف ماءها ويقتلع نباتها البرى ثم .. يسوى الأرض ويزرعها فاكهة .. وأخذ يعمل .. ويعمل .. ويعمل .. ويعرق .. ويعرق .. ويعرق .. حتى أتلف ملاءة السرير .

وعندما أبل من مرضه نظر لأسرار بعينين شاكرتين ولم يفصح .. ودخل البدوي متأبطا عصاه .. نفخ من أنفه وقبله .. وفاحت منه رائحة عطوره المحلية .. تلك التى يصنعها فى البيت .

وجلس الثلاثة .. الرجلان والمرأة .. وحمل إليهم مطعم الشواء غداء إلى

بيت صلاح .. وجعلوا يتحدثون .

كان صلاح يحس لأول مرة في حياته بطعم المرض في فمه والخوف في قلبه والتوجس من فقد الصديق .. الصديق الوحيد البدوى السيد ، الذى لم يكن يحس لوجوده وزنا قبل اليوم مثل هذا الوزن . وجعل يتكلم عن الأحوال في غياب صلاح فقال لصلاح :

— قد لا تصدق أننى كدت أن أحقق ثروة عن طريقك .

قال صلاح مداعبا :

— لا بد أنك كنت ستبيع المجلة وأنا غائب ..

— المجلة ؟! .. لا .. ذلك شيء لا قيمة له إذا قيس بما روودت عنه ..

قالت أسرار ماجنة :

— لا بد أنهم راودوك عن نفسك يا أستاذ بدوى ..

فرد في هدوء مثير :

— لم تبعدى عن الحق . راودونى عن نفسى بصورة مقلوبة .. راودونى

عن صلاح النجومى ..

قالت أسرار :

— تقصد أن مجلة أخرى زaidت فى رفع مرتبك ؟

فتبسم ولم يضحك . وكان وجه صلاح فى احتقان شديد . فقد وقع بعض

مخاوفه لكنه كان صامتا .. وكذلك صديقه وكذلك صديقه ..

ها هم أولاء الثلاثة ينظر بعضهم إلى بعض . يبحثون عن كلمة معلقة تخص

الجميع مثل مفتاح باب ، كل منهم ينتظر أن يخرج أحدهم من جيبه .

واصفر وجه البدوى ثم عاد فالتب وقال :

— بل الذى حدث يا سيدتى أنهم أرادوا منى أن أبيع صلاح نفسه ..

لا تقاطعوني .. لقد عرضوا على أشياء هي غالية في نظرهم ، ولكنها عندي ..
لا داعي . فصلاح يعرف مذهبي .. نعم . أحدهم بعث إلى وأنت مريض
وظل يقنعني لأقنعك بما رفضته أنت . فقلت له : « إن كل ما تفكر فيه ، هو
أن تقول كلمتك وتمضي » والكلمة التي تعلق في الأذهان قد يرونها الزمن
فتثمر فجأة ..

قالت أسرار بشبه شرود :

— صلاح .. ألا تخاف أن تصبح فقيرا ؟!

قال بصوت واهن :

— لقد تمرت على الغنى فكيف أخاف الفقر ؟ (ونظر إلى البدوي)
ما يبقى من كوب اللبن على مائدة صديقي يكفيني .. وما لا يبقى منه ..
يكفيني ..

هزت الفتاة رأسها وقالت كأنها تخاطب نفسها :

— حقيقة .. الشمس لا تظهر مرة واحدة .. في كبد السماء . كما .. تقذف
الكرة .. لكنها .. تعلق رويدا .. رويدا ..

وفي الليلة التالية كان صلاح قد أبل من مرضه تماما .. لكنه كان وحيدا في
المسكن . وجاء إليه البدوي وألقى إليه بأبناء العدد الرابع .. ولم يكن الموقف
مشجعا . وجاءت رسائل بنفس إمضاء المعجيين بأول عدد تحمل السب
واللعن .. موقف مربك .. والمخازن تبدأ تمتلئ .. وقال البدوي :

— إني أشعر يا صلاح بما يحدث تقليديا لمثل موقفك .. أن يفرض على
مجلتك الحصار .. ورجل مثل موقفه معك شائك جدا .. ليتنى لم أعرفك ..
إني غير خائف على مالك .. ولكنني خائف على حماسك . أخاف أن تتمزق .

وأنا إذا وافقتك على أن تسير في الطريق الذى رفضته من قبل خنتك وخنت
نفسى .. وإذا ذهبت أنت فأنى لن أتبعك . والحق كالنور محتاج إلى مصاريق
على رأى أسرار .. وإذا ما انتهى بك الأمر إلى التوقف حز هذا فى نفسى كثيرا ،
فإننا مثل أبى أجرى برجل واحدة وراءك .. وراء مهر عريق .. يا إلهى ..
مجمع الأشرار كالعنكبوت يغزل شبكته فى وهلة .. ويحاول أن يخفىء نظراته
البشعة بين خروق الشبكة (صمت طويل) هل لى أن أسأل .. كم .. بقى
معك ؟!

همس صلاح فى خجل :

— معى ما يصدر أربعة أعداد ..

وضع البدوى كرة عصاه المعدنية فى فمه كأنما ليكتم أنفاس نفسه ثم قال :
— المشكل أن علينا أن نؤجر مخازن جديدة .. كم تبدو هذه الأعداد من
الجملة مثل العوانس .. كم منهم مظلومات .. ذنهن أن الرجال يفقدون التمييز
الصحيح أحيانا . آه .. صلاح .. أين أيام الطلاقة .. ما أحلى ليلة العباسية
الشرقية .. ليلتها كنا نحس أننا نحكم الأشياء .. حتى ظلال الشجر على الأرض
.. نعخيل أنها خنادق أو صخور أو زفت مراق .. ما لى حولت الموضوع إلى
مأساة ؟ ..

ضحك صلاح :

— تسألنى ؟ على كل حال لا بد أن يحدث شىء ما ..

— أحيانا تبدو ساذجا . هل تكف الحوادث عن الوقوع ؟ غير أننا لا نرى
إلا ما يهمنى .. والباقي .. لاغ .. (صمت) سلام عليكم .. وأهلا بغد ما
دمت موجودا يا صلاح ..
وقبله فى جبينه . ومضى ..

وتقدمت خطا الليل ..

خريف بارد وهواء مستعجل يصفر في النوافذ وصلاح يلقي إليه بسمعه .
وكان يسأل نفسه : ماذا أعمل ؟ إنه على وشك الإفلاس .. بضعة آلاف من
الجنبيات تأكلت في سبيل عدة كلمات حول فكرة . وعاد يسأل نفسه : هل
هو مغفل أو مغبون أو على حق ؟ وجاء الجواب : بعض الناس يدفعون حياتهم
الغالية ثمناً لأتفه شيء .. ولشيء لا يشتري .. يدفعون وهم يعلمون ويتغافلون
وهم يعلمون . مثل ذلك الشاب الأنيق الوسيم الذي جرى وراء الترام أمام دار
الكتب فسقط بين العربات . كان يعلم تماماً ما يفعل وإن تجاهل . وهو في رأى
صلاح قد « اشترى لحظة بحياة » .. فمن الأفضل .. إذن فلا داعي للوم ..
« لماذا لا أفرض أننى ابن محمد الجندى .. ورثت داراً مسقوفة بالخطب وباباً
مملوءاً بالخروق . عيون الصبيان في الحارة تلتصص منه باستمرار على دار ليس
فيها سر » .. وشعر بطمأنينة . وكان يهتف : « يسقط الخوف » .. ومد
رجليه . شعر بدفء الغطاء . وعندئذ تمنى لو أن أحداً قدم إليه شراباً دافئاً .
ولم يلبث أن سمع جرس الباب .. فعرف الطارق .. ودخلت أسرار .. قبلته
في خده وهو في الصلاة ، ثم انسحب إلى فراشه وتبعته . وجلست على السرير
عند قدميه . قالت :

— في عينيك طلب .. قل يا ابني ..

— شراب دافئ ..

فضحكت في تهالك كأنها مجعدة :

— شراب دافئ .. وغطاء دافئ .. وليل دافئ . اطلب ..

ثم عادت إليه بقدحين من الشاي .. وجلسا يشربان .. قالت بعد أن هربت

بشفقتها عن حافة الكوب الملتهب :

— نحن أين كنت الآن ؟!

قهقهه وانيا :

— عسير جدا أن أعرف ذلك .. فأنت تحملين معاني اسمك كلها ..

هزت كتفها :

— تخمن ..

أسرع قائلا :

— عند العريس ..

ضحكت عاليا ورشفت رشفة :

— هايل .. هل يبدو على ذلك !؟

هز رأسه نفيا .. وساد صمت . ورويدا رويدا هبط على المكان ظل كان
يجب أن يهبط . أشبه بالملل المشوب بالخلجل . وكان الليل من حولهما مرسوم
على لوحة توقع الصباح بعده نوع من الوهم لكنه لا يورث الخوف ، ويدعو
إلى عمل ما . حتى ولو كان أكلا .. أو قبلا .. أو نوما .. أو خصاما .. كليل
العاشق والعشيقة حين يوسوس لهما بمخاوف المستقبل المليء بالهجر أو الكره
أو البوار ..

وقطعت أسرار الصمت قائلة بهدوء مخدر :

— هل تعرف أين يسكن الآن ؟

هز رأسه نفيا . فاستطردت :

— في العباسية الشرقية ..

وانفجرت بالضحك . تهز جذعها وتطوح رأسها وغدائرها ، وهو
صامت . ناظر .. يحس أن الحمى ستعاوده .. وعاد نفس الصمت الذي
انقضى منذ وهلة فقطعه صلاح :

— ذكرتنى بليلة العباسية .. ليتنا نعيش هناك مع المجانين .. كنا ليلتها يا أسرار
على الخط الفاصل بين العقل والجنون . ولذلك كنا سعداء .. حتى البدوى

— ١٧٤ —

السيد رمى بوقاره وراء سور أحد البيوت حين وقف ينبج لأحد الكلاب ليغيطه .. وأخذ الكلب ينبج بسعار .. وجرينا .. آه (صمت) لكن قولى لى .. هل ستزوجين هذا الرجل حقيقة ؟
فردت بشبه احتجاج لكنه مفتعل :
— هل ترائى لست أهلا لهذا الشرف ؟
— لا . ليست هذه هى المشكلة .. المشكلة أنه يعرف نظرتك للحياة .. فقط .

زمت شفتيها بشدة وحملت فيه كأنها تخيفه ثم قالت :
— يبدو أن الرجل لا يستسلم تماما لمقاديره مع المرأة إلا إذا خانت زوجته .
هذا إذا لم يهجر النساء . أما إذا لم يهجر فيعيش إما صيادا وإما فريسة ..
رد صلاح بلهجة تهكم خفيفة :
— منكم نستفيد ..
(وتأوه) ..

— وهل تظن أنني رضيت .. لا .. إنه يتعذب بسببى .. لكن عذاب الحب خير لى من العذاب الآخر .. (صمت) .. لماذا تنظر إلى هكذا .. إنك مريض فلتنم ..

وقبلته قبلة طويلة وأحبكت عليه الأغطية وخرجت تجرى ..

١٣

كانت علامات الخوف تتزايد على وجه البدوى السيد أسبوعا بعد أسبوع . أما الشبان المتحمسون فقد بدوا كالتائهين من المرض . فلم تكن هذه المجلة في نظرهم مصدر رزق . وإنما كانت شاهدا على شيء كانوا يحملون بأن يروه في مصر ذات يوم ..

أما صلاح فقد كان أقلهم اهتماما .. على الرغم من أنه دخل ذات صباح فرأى مشهدا أثار أشجانه .. كان له فيما مضى ذكريات حلوة .. لكنه اليوم جرح قلبه .

هناك عربة نقل تحمل (الرجوع) من مجلته .. وكانت عتبة الباب ذات وسادة من الحجارة فعزلت خروج العربة .. وكان هناك شابان يساعدان الحوذى والحمار على اجتياز العتبة بالدفع من الخلف .. ولم يفتننا لمقدم صلاح .. وكان أحد الشابين يقول للآخر مداعبا في مرارة : زق يا ابنى زق .. محرر وحمار .. زق يا ابنى زق . والعوض على الله » .

وتراجع صلاح حيث اختبأ خلف إحدى البواكى في شارع محمد على حتى مرت المشكلة .. ووثب الحوذى على مقدم العربة ولسع الحمار بالسوط وهو يقول كلمتهم المشهورة : « حا .. يا حمار .. » .

وعاد صلاح آخذا طريقه إلى الباب وهو يسأل : « كيف يعرف الحمار أنه حمار ولا يعرف كثير من الناس ماهية أنفسهم .. » .

وجلس على مكتبه ودخل الأستاذ البدوى في يأسه الوديع ، وفتح الرسائل

فإذا كلها سب .. وأسماء .. لافرق بين من شتم بالشعر أو النثر أو الخط الردىء أو الرسم البدوى .. والخطابات من كل مكان .. الدلتا والصعيد والعاصمة الكبيرة .

« يا إلهى !.. كيف فاحت رائحة جريمتى إلى هذا الحد ؟ » . وعندئذ ذكر قول البدوى : « هل تعلم لماذا خص الله الأنبياء بالرسالات الكبرى ؟! ليس لأن الرسالات كبرى فقط ، ولكن لأنها تحتاج إلى أنبياء .. هل تفهمنى ؟! الأذى والذم ومناوشات الندم .. » . وجلس شاردا . ورد على أسرار باقتضاب شديد وهى تسأل عن صحته .. وجلس مسترخيا .. مؤخر رأسه على طرف الكرسي وعينه إلى البحيرة المرسومة بالزيت فى السقف . المظمورة التى وقف فيها الزورق .. وتبسم .. وتحسس خديه فشعر بأنهما ناحلان .

ومرت فترة سكون دخل بعدها البدوى فى حالة تدل على الاحتشاد والاهتمام الشديد . وقرب منه . وضع كفيه على بلورة المكتب بهدوء التقليدى ونفخ من أنفه . وكانت عينا صلاح تكادان تثبا من محجريهما وهو ينتظر ماذا سيقول . وقال البدوى :

— إن شخصية هامة فى حجرى بانتظار أن تأذن لها بالدخول .

واعتدل صلاح على الكرسي وقال :

— شخصية هامة ١٩ .. من ١٩ .. رئيس أى الأحزاب أو مندوبه جاء اليوم

يراودنى ؟

تبسم البدوى وقال :

— رئيس حزب الفلاح ..

رد صلاح بسرعة :

— لن أقابله ..

— ١٧٧ —

— هل ترى هذا مفيدا ؟ إنه أولا : هروب من الموقف ، وثانيا : ليس من حسن المعاملة التي اشتهرت بها . وثالثا : فليس أحد يجبر أحدا على شيء لا يرضاه لنفسه ..

رد صلاح بحسم :

— مقنع .. دعه يدخل ..

ومضت ثوان انفرج الباب بعدها عن قامة .. طه النجومى .. فقفر صلاح فمه وأنساه الموقف ثقل الدعابة . فخرج من الكرسي وقابل أخاه . عانقه وقبله . ولم يدر لماذا جاشت نفسه . أحس كأنه فى حضن أم . إحساس مؤقت زال سريعا . واسترد وعيه :

— أهلا .. يا أخى ..

وكان طه يفحص المكان بقلب معرض ليس على استعداد أن يؤمن بشيء مما حوله حتى ولو كان جناحا من الفردوس . وأخذ صلاح يردد : أهلا يا أخى « .. وكان طه فى بدلة أفرنجي ولكن عليه عباءة أبيه وفى يده عصاه .. وأحس صلاح أنه يرى ملامح النجومى الكبير نفسه وخاف .. استوحش واستغرب الزيارة فضلا على أن يريد اليوم كان أردأ من الطقس نفسه .. يوم مشحون بالمصاعب .. وهو فى أعقاب مرض . ومنظره مهزول . وكان يتمنى ألا يراه أخوه فى هذه الحالة . خصوصا وأنه أحس أن الزهو يعلوه رويدا رويدا .

ودخل فراش بالقهوة . وأشعل صلاح سيجارتين . ولم يتكلم طه ، إلا بعد فترة . كان صلاح يعاود النظر حوله ليفحص دار المجلة من جديد — فى حدود ما يرى — كأنه سيشتريها اليوم فقط ، وأخيرا قال طه :

— كنت هنا .. فقلت فى نفسى أطمئن على صلاح ..

— شرف كبير .. عسى أن يتكرر ..

(للزمن بقية)

— ١٧٨ —

— سيتكرر .. كثيرا بإذن الله وإذا شئت أنت ..

رد مستغربا :

— أنا أرفض أن تزورنى ؟

— ستعرف قصدى .. (صمت) جئت اليوم لأرشح نفسى لمجلس النواب .. ودفعت التأمين . وقلت أمر على أخى فى القاهرة .. (وزم شفثيه) .

— أهلا .. أرجو لك النجاح ..

— ولك ..

وساد صمت . كان طه يبدو مفكرا جدا .. لكنه ليس خائفا . وتكلم :
— أنت تعرف الشيخ عبد الجليل .. لقد رشح نفسه أيضا عن الدائرة .
وتعلم أن نجاحى ممكن ونجاحه ممكن .. معركة غامضة . ولذلك جئت إليك لتساعدنى .

أخذ صلاح يفكر فى أى نوع من المساعدة يقصده أخوه . أهو الدعاية فى المجلة .. محال .. أهو المساعدة بالمال ؟ إنه ليس محتاجا إلى ذهب .. أهو الدعاية باللسان له فى المنطقة الريفية الواسعة ؟ إن قلبه لا يرضى بهذا ولا ضميره فهو يأخذ على أخيه مآخذ يعرفها هو ويعرفها كل الناس . فماذا يقصد سليل النجومى الكبير ؟

قال طه بعد أن ذهب الصمت بنصف أعصاب أخيه :

— أخى .. أرجو أن تسمعننى .. أنت لك معجبون فى الدائرة كثيرون ، ولو رشحت نفسك معى كنا أخوين ضد الشيخ عبد الجليل ، وقبل الذهاب إلى لجان الانتخابات يومين يتنازل أحدنا لأخيه . ولا فرق بينى وبينك .. ذلك خير من أن يأخذها رجل أنت تعلم مقدار الضغائن التى يكنها لبيتنا ولأرضنا .

— ولكن .. يا أخى .. أظن أنها خصومات قديمة . وكنت أظن أنها ماتت .
— لا . الخصومات فى الريف تورث مثل العقار . (وبابتسام) يبدو
يا صلاح أنك صرت مدنيا جدا .

شعر صلاح أنه محاصر فقال فى رقة ولباقة :

— نعيشى الليلة معا ونبيت معا ونبت فى الموضوع غدا صباحا .

رد طه بإهمال :

— إن كنت تراه محتاجا للتفكير فأنا متنازل عن طلبى عندك وسألقي
خصمى وحدى . ولو أن أبناء النجومى لا يجوز أن يكون هذا موقفهم .

رد صلاح بحماسة لا يدرى كيف أتت :

— موافق .

عندئذ نهض طه واحتضن شقيقه وقبله . وقال له :

— لا تتعب نفسك ولا تترك عملك وسأدفع لك التأمين . فقط اكتب لى

طلبا .

ثم جلسا يتحدثان عن أشياء بعيدة عن كل هذا .. حتى كاد صلاح يشعر
أنهما توأمان ، وما لبث طه أن ودع شقيقه بعد الغداء ومضى ..

سأل صلاح صديقه البدوى قائلا له وكأنه يدرس الموضوع من جديد :

— ما معنى هذا ؟

فرد البدوى بهدوء :

— إنه سيدخل الانتخابات مستقلا وأنت ستدخل مستقلا كذلك . إذن
فلا ضير عليك . وغاية ما يطمع فيه أخوك بعد تدمير خصمكما أن تتنازل أنت
له . وما دام هو متكفلا بمعظم النفقات فهى حركة يمكن أن تستفيد منها
كشباب يطلب المستقبل .. وبعد هذا كله فالانتخابات كالبحر ربما قذف به

هو إلى صخرة ونجوت أنت .. وبذلك يكون القدر قد نجاك إذ تستطيع أن تعبر
هناك عن رغبات نفسك للفلاح وعن أمانيك ، وتستطيع أن تفلت من حادثة
توقف خروج المجلة بلباقة من صنع القدر .. أظن ذلك مفهوما .
سكت صلاح وعاد يسأل :

— لكن يا أخى .. أنا أستبعد أن أخطف الثمرة من يد طه . أنت لا تعرفه
.. يوم يلبس ملابس الراهب فتق أنه قادم على أعظم مخالفة دينية ..
— ممكن .. أن يكون هذا حقا .. وعند ذلك ساومه على التنازل لتعوض
خسائر المجلة ..

— جميل .. إن لم يكن هذا صوابا كله فمعظمه صواب ..

ومن الغريب أن خطابات الإعجاب جاءت مرة أخرى تترى على دار المجلة
الجديدة . ناس يهثون صلاح بإقدامه على خطوة تمثيلهم في المجلس ليدخل
هناك تفكير جديد . وناس يهثونه على مقالاته حول مصالح الفلاح وباستقلاله
عن حزب اللوردات الذى يتبنى الأسمال البالية في كل قرية . واختفت نهائيا
خطابات الشتائم .. وارتفع التوزيع إلى حد كبير لكن .. كان معه أمل .
وحمل البدوى الأعباء كلها مع جماعة الشبان في الوقت الذى بدا فيه
صلاح — بدعوة من أخيه — ينزل إلى الريف استعدادا للمعركة .

أما قرية النجومى ذاتها فكانت تهتف باسم الأخوين معا ، وتسأل صلاح
بينه وبين نفسه عن رجل غائب . عن محمد الجندى .. وقال في نفسه بعد
وهلة : « ما أشبه هذا بقولهم : يحيا الحق ، يحيا الباطل . أو يحيا الظلم ، يحيا
العدل » . لكنه قبل هذا أملا في المستقبل واعتمادا على لحظة قد لا تزيد على عدة
ثوان يقابل فيها كل رجل لنفسه وجها لوجه ويقرر — غالبا — ما يراه حقا

وواجبا . وكان صلاح كبير العزاء فى هذا الموقف ، إذ لم تكن هناك نفقات دعاية كبيرة . ولم تكن المجلة فى هذه الأوقات — وهى غير طويلة — فى المكان الأول من اهتمامه .. فقد أيقن أن منبر مجلس النواب سيتسع لحماسته ومشاريعه . ولولا أن له ولأخيه عدوا مشتركا ما وصل إلى هذه الأمنية .

وفى القاهرة ذات مساء لقي السيدة أسرار . قابلته بضحكتها المعهودة فى دار المجلة وقالت له : أنا إن كنت لا أعرف الخوف فأنى أخاف عليك .. وخوفى عليك معناه أنك تعمل شيئا كبيرا . لنفرض أن يدك جرحت وأنت تحاول فتح باب عظيم . ولو لم يفتح الباب .. فستظل تنظر إلى الجرح فى يديك على أنه وسام . منحتك لك يد مجهولة ، مثل الفرحة التى تدخل قلبك إذا ما هديت خطا رجل أعمى من رصيف إلى رصيف .. هذه الفرحة من الذى منحها لك ؟..

ثم عادت تضحك .. تقول الجدل الجاد وتتوجه بضحكة مستهترة .. غريب .. عدة شخصيات لم تتكامل وتمازجت .. ثم حملت فيه واستطردت — وافرض — لا سمح الله — أنك فشلت .. فماذا يجرى فى الدنيا .. (صمت طويل) طريق الفشل يبدو موحشا أول الأمر ، ثم لا تلبث أن تجد فيه من يؤنسك .. لأنه مأهول بالسكان .. هىء هىء هىء .. سأنتخبك .

* * *

وفى بقية القرى التى هى مفروض فيها أن يكون لعدوهم فيها نصيب أعظم — كانت الجماهير تهتف لصلاح النجومى .. رحبوا به كثيرا . ولم تقم معارك ذات شأن .. وبدأ الشيخ عبد الجليل منكمشا ، حفنة من الناس ينادون به .. واستلزم ذلك أن يتردد صلاح على الريف كل يوم تقريبا .. كل يوم فى قرية .. وكان المثقفون أول الملتفين حوله .. الإخلاص يبدو فى عيونهم وحتى فى

لفحات أنفاسهم إذا هتفوا .

وقال البدوى له ذات ليلة :

— إني لا أعرف الكثير عن هذه المعارك فى الريف .. خذنى معك يا ابن

النجومى .

وقد فعل . كان البدوى مذهولا . معظم الناس يهتفون للأخوين وقليل منهم يهتف لخصمهما . وكان الغبار معقودا فوق الرعوس الساذجة . والعصى تلوح فى الفضاء . وبدا سكون الحقول غير معقول وسط هذا الضجيج .

وعندما عاد البدوى وصديقه ليلة واحدة إلى القاهرة قال البدوى له :

— لقد بقى ثلاثة أيام فمن منكما سيتنازل لأخيه بعد أن أصبحتما تملكان

الأغلبية ؟

رد صلاح بفرحة :

— نسيت أن أخبرك ، لقد أسرها أخى فى أذى وسيعلن غدا تنازله وتأيدته

لى .. سيمشى كل شىء على ما يرام .

سرح البدوى . وكان فرحا . لكنه عاد فقطب حاجبيه . وقال لصلاح :

— أمل كبير . المهم . أنك ستعبر عن مشاعرك الصادقة الجديدة نحو

الفلاحين فى أرض النجومى والشيخ عبد الجليل وبقية أرض مصر .. وربما

كان ذلك فى عون المجلة بطريقة أو أخرى .. (وصمت) ألا ترى أن الله قد

خلق لنا اثنين من كل جارية عزيزة .. عينان وأذنان .. ويدان ورجلان ..

أصلى واحتياطى فى كل ما لا يستغنى عنه .. والطحال يخزن الدم ليحارب

النزيف .. والقلب يخزن قوة احتياطية لتقدر على الجرى .. و ..

— كفى .. إني رأيت العيون هناك .. معظمها ييسم لى .. حتى المرضى

بالرمد رأيت الحب فى أعينهم .. يا صديقى كفكف أملى اليوم .. فهو يركض

بى بسرعة مجنونة ولو انكفأ بى لأهلكنى . يا صديقى .. لم يكن عندك قبل شهرين كلمة أمل .. فهل أصبحت اليوم لا تملك لى كلمة يأس . أنا حقيقة محتاج إليها .

هز البدوى رأسه .. وتلاعب على فمه وفى بريق عينيه وفى حركة يديه وهو يدللك إحداهما بالأخرى — تلاعبت معانى فى غموض الطيف . والسموات ذات الضباب . لكن صلاح كان يرى من بين كل هؤلاء قوسا عظيما ذا ألوان زاهية مثل قوس قزح . مثل قنطرة على الأفق المعتم .. فى ألوانه المشهورة التى ترمى إلى كل قلب بالبهجة الغامضة .

وطلعت صحف الصباح كلها تحمل نبأ تنازل طه النجومى عن الترشيح لأخيه صلاح مع تأييده الكامل ..

وقرأها الشاب فاستطارته الفرحة . كان باقيا ثلاثة أيام .. وكان عليه أن يلف الدائرة خلالها . وفى أول يوم كانت قرية النجومى أشبه بطيارة الورق ترتفع وتنخفض من المتغيرات لصلاح . وبدأ طه سعيدا تعيسا . وأحس أخوه أن أخاه الكبير كان مرغما . فلعله رأى كل شىء ضده فأثر أن يترك لأخيه خير الغنيمة فذلك خير من أن يأخذها عدوه ..

وفى بقية القرى كان الموقف مشابها لهذا مع اختلاف لا يزعج ، هو التذبذب المألوف فى المعارك والحميات والقضايا والمشاكل .. فليست بطبيعتها تمشى على أرض سوية أو قاعدة رياضية لأن مصدرها النفس .. والنفس هى الحب الذى لن نصل إلى نهايته حتى نهاية الدنيا .

وأحس صلاح بالجهد .. كان عليه أن ينفق .. كان يعطى المال للدعاية على أنه هدية حب .. وبشارة نجاح . وكانت عيون الناس فرحة به .. أما هو فقد

صار في نصف وزنه وعادوته الحمى لكنه ما كان يشعر بشيء أكثر من أنه يرى على أفق الغد وهو اليوم السابق للانتخاب — غبارا أثارته أقدام الفلاحين وحوافر ركائبهم وعجلات عرباتهم . زحف إلى يوم .. لم يبق عليه إلا يوم . يعنى بعد غد .

وكان عليه في اليوم السابق إلى السعى نحو الصناديق أن يمر على المنطقة كلها . فركب عربة ومعه جماعة من حواريه . معظمهم من الشبان المتحمسين .

كانت قرية النجومى في ذلك اليوم صامتة . بسبب وفاة سيد يمت إليهم بصلة القرى . ولم يعنه الأمر . ففي أيام الأحداث الكبرى يلتفت الناس إلى الأحداث العادية .. نعم .. مثل حادث ولادة في ليلة حرب . أو حادث وفاة اللحد ليلة مات النجومى الكبير .. : « كل هذا لا يهم . المهم أن أرى غيرها من القرى » .

ودخل صلاح القرية الأولى وقابله أهلها بالهتاف له . والتفوا حوله حتى إذا ما أحاطوا به وجعلوه نهبا طيبا لسرور لا يوصف ، أخذوا فجأة يهتفون للشيخ عبد الجليل .

لم يصدق صلاح أذنيه . أحس أن هذه الأصوات ليست صادرة من الأرض . بل من أعماق كهوف مربية مخيفة . ذات قرار معوج مظلم لم تهتد إليه عين ولو بمساعدة النور .. من أعماق نفوس أسىء توجيهها . غير أنه لم يعبأ . ترك القرية ومضى . وكان الشبان الذين يركبون معه يهتفون له وعيونهم ملأى بالدمع . أحسوا روائح غريبة في جو هذه المعركة . لم تخطر على بال . روائح الصمود أمامها محتاج إلى عزيمة نموذجية . عزيمة الرسائل . ودخل القرية الثانية . فجاء الناس يسعون . أخذوا يهتفون له ولكنه لم

يصدق أذنيه . لكن الهتاف كان حارا .. وبحت أصوات الشبان ، وسار والناس حولهم .. وفجأة يرن اسم الشيخ عبد الجليل بنفس الطريقة التي يرن بها في القرية الأولى .

بدأ الشك يساور صلاح .. من الذى استطاع أن يعمل كل هذا ؟ هناك ثلاث قوى : قوة أخيه . وقوة خصمه . وقوة الناس أنفسهم . فما هى القوة التى حولت مجرى الحوادث ؟

ولم يستطع الوصول إلى جواب .

لكنه فى يوم الانتخاب نفسه خرج مبكرا ..

كانت قرية النجومى صامته .. لا تقول أحب أو أكره .. فلم يأبه بالأمر فهى مسقط رأسه ولن تخون موقفه .. حتى ولو خانت ستكون حنونا . أما القرية الأخرى فقد دخلها .

كانت الجموع كثيرة .. لقيته صامته لا أحد يهتف .. صمت مطبق كأنه شبح جنازة . وفرك أذنيه . كاد يجن . وتلفت لمن حوله فى العربة والذين كانوا يهتفون فأخذوا بالصمت فسكتوا .. وأخيرا وبعد فترة هى مؤكدة قصيرة لكنها فى عمق عام من العذاب — بعد هذه الفترة ظهر رجل بدين يقف على عربة نقل وهو معروف .. إنه طحان فى وابور القرية . وجهه مطفى بالدقيق وكرشه أمامه إلى نصف متر .. وكان يرتدى ملابس غريبة عرفها صلاح فكاد يصرخ .. هى ملابس التمثيل .. ملابس الحارس التى كان صلاح يرتديها لحراسة الملك شهريار ليلة مات أبوه وجرى بها فى الظلام إلى البيت .

لم يعد شيئا خافيا ..

أيقن صلاح أن أخاه قد باعها لخصمه .. يعنى باعه وإن لم يكن فيها .. وكان هذا حقا ، فقد أخذ طه من منافسهم بضعة ألوف نظير هذا الثوب . ولم يكن الفلاحون يقولون شيئا . كان الطحان البدين يترقص ومعه الرمح

فى صمت والفلاحون من حوله يشيرون بأيديهم علامة « لا » دون كلام .
أحس أنه كاد يتمزق .

لكنه سارع إلى القرية الأخرى . وقابله الناس صامتين . وما لبث أن رأى
نفس المنظر فقد أدركه بعربة ، ووقف الطحان يترقص . والناس يشيرون فى
صمت « لا » .

لم تعد طاقة الإنسان فى صلاح قادرة على احتمال أكثر من هذا فقفل راجعا
إلى قريتهم حيث قابل شقيقه .

كان الليل قد نزل . والنسيم يرجع القنديل المعلق على باب الدوار . والقرية
هادئة كأن شيئا لم يكن فيها . ودخل صلاح على أخيه وهم أن يمد إليه يده لكنه
تذكر معانى كبيرة .. أهمها أن المعركة بينه وبين أخيه لم تجعل الشيخ عبد الجليل
يسقط .

فقال لطله بعين حزينة :

— كيف بعتنى يا أخى ؟ .

فرد متنبلا :

— أنا .. أنا بعث الثوب الذى رأيته على أنه (روب) من القصب .. ومن

المؤكد أن ما حدث لا يخطر على بالى ..

— ما كنت أحسب أن الأخ يباع هكذا ..

وأطرق إلى الأرض .. إذ أيقن بما لا شك فيه أن التحالف قام بين طه وعبد
الجليل . مؤلم أن يقع المرء بين سيف صديقه وسيف عدوه .. لكنه تماسك
وقال فى نفسه : « حقيقة أن الأخ لا يباع .. لكن .. إذا ساقه أخوه إلى السوق
.. فإنه سيبيع بأى ثمن وربما بلا ثمن .. » .

ورفع رأسه . وكان يحس أن ظهره متصلب .. فشدد قامته وألقى على الدوار
.. موطن الجندى .. والنجومى الكبير .. وطه أخيه — نظرة أخيرة .. نظرة

رجل لم يعد يرى في المكان شيئا .. تحبه العين .. أو حتى تألفه .. وكانت رائحة البن المحمص تفوح في المكان ، وقارئ يقرأ في الداخل لا يدرى أهو إنسان أو راديو . « غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون » .

وعند نهاية هذه الآية التقى نظر الأخوين . وكان الخبث يملأ عين طه أما عين صلاح فكانت في شبه حالة بحيرة الزيت المرسومة في سقف حجرته في المجلة . لون قديم والحركة فيها معطلة وزورق الأحلام في مائها الصافي معطل العدة .

ومد صلاح يده يصافح أخاه مودعا في صمت ، ومد طه يده . كانت يد أخيه الكبير ثلجا فشر صلاح كأنه محموم .. وركب العربة وتحرك مسافرا إلى القاهرة .

وعبر البرارى . ورأى بحيرة المنزلة والقمر على مائها الساكن وأصوات طيور توقوق من طيور أخرى تطاردها . والغاب والحلفاء تخشع مع نسيم خريف فائر ..

وسأل صلاح نفسه : « لماذا ينير القمر هذه الأماكن ؟ » .

كان مجرد سؤال لا يعنى شيئا .. مجرد حركة ذهنية كحركة يد النائم أو قدمه . ولم يعنه أن يجد الجواب ، لأن هناك في ذهنه وذهن جيله أسئلة أشد أهمية لا تجد لها جوابا حتى الآن ..

في دار المجلة تلتقيه البدوى فقرأ في وجهه كل شيء .. « باعه أخوه بالآلاف لعبد الجليل وتركه ينفق الآلاف فخسر كل مدخراته . ولم يكن عيبا أن يثق .. أو حتى يغامر .. لكن العيب سيأتى فيما بعد . فيما إذا استسلم صلاح للموقف اليائس ، هذا ما قاله البدوى في نفسه .

واستلقى صلاح على أريكة .. واستعاد وعيه قليلا .. وكان البدوى جالسا

تحت قدميه بعد أن تخلص صلاح من حذائه وجوربه وكان صديقه يدلك له أطرافه .

نظر صلاح إلى المنظر .. ملأ عينيه منه تماما .. رأى الهدوء الذى لا يتزعزع على وجه البدوى . وكان ينفخ من أنفه .. فتبسم صلاح . وقال بصوت هزيل :

— عزيزى ..

— نعم .. قل كل شيء .. عليك أن تلقى بفضلات الفشل فإن احتفاظك بها معوق للخطوة الجديدة .. لا تستصحب معك قطع القطن الملوثة بالصديد بعد الجراحة .. ارم بها فى أول صفيحة قمامة . من المؤكد أن طه هو الذى دبر معظم خطابات المدح والسب للمجلة .. كان أبى يمشى على رجل من خشب . وأنا أسعد منه حظا لأنى أمشى على رجلين .. ميراث النجومى أنفق على الحق وهو مثل النور محتاج إلى مصاريف .. هى هى هى .. أسرار هى التى قالت هذا .. لا تحاول أن تبصق لا إلى الداخل ولا إلى الخارج .. فإنك بلا شك قد جف ريقك .. الصباح الحقيقى قبله ليل حقيقى .. هات يدك اليمنى أدلكها لك لكى تمسك القلم منذ الغد .. « سيوفهم مع معاوية وقلوبهم مع على » .. اغفر للذين يغشون فى سلعة الحرية .. أنت شاب أصيل ستسترد قواك فى أقرب فرصة .. وسنكتب معا فى مجلات وصحف أخرى . لن تذرف دمعة على (دار المجلة الجديدة) إلا مثل ما تذرف الدموع على دار مدرسة انتقلنا منها إلى مدرسة أعلى .. ذكريات .. ربما صنعتك ..

كان صلاح مغمضا عينيه يذكر بنصف وعيه ويسمع بنصف وعيه ، وخيل إليه أنه رأى أسرار وأنه أخذها وخرج ومعهم البدوى .

كانوا يمرحون فى حى العباسية الشرقية كما فعلوا قبالا .. والليل مظلم والوقت متأخر .. ووقفوا هناك من جديد على الحد الفاصل بين العقل والجنون

.. عادوا إلى نفس الليلة التي كانوا يظنون أنهم يحكمون الأشياء .. حتى ظلال
الشجر على الأرض .. وتحيلوها خنادق أو صخورا أو زفامراقا . والبدوى
يعاكس كلبا رابضا وراء سور حديدى وينبح كل منهما على الآخر .. ثم
يجرون ..

وفى صباح يوم قريب كان صلاح يدق على البدوى بابه ..
وشربوا اللبن معا .. عاد إليه بعض طعمه القديم .. وإن أحسا أنه غير جديد
.. كأنه من البقرة المجعدة التي رسمها يوما ما صلاح على غلاف المجلة ..
ثم تأبط البدوى عصاه . وجر صديقه قائلا فى دعابة لطيفة ..
« تعال نتوكل .. » ..

سار .. خطاه تسبق خطا البدوى .. يفكر بذهن صاف .. كانا يقطعان
شارع الخليج ، والبدوى مثل قائد فرقة موسيقية فقد كل أفرادها ولم يبق منها
إلا هو والعصا .. « شارع الخليج أصله ترعة وردمت .. كان فيها سمك يأكل
بعضه بعضا .. واليوم فيها ناس يتزاحمون يأكل بعضهم بعضا مثل
السمك .. » .. ها ها ها .

ومر صلاح على النافذة المعهودة . الدنيا نهار .. قال صلاح عندما رآها :
« لقد كبرت جدا .. جدا .. جدا .. » .

وقبل نهاية شارع حسن الأكبر انخرقا إلى دار دائرة المعارف .. صعد السلم
.. هبت عليهما روائح مصطفى كامل وبذلت « البنجور » وتناهى إلى سمعهما
أصوات آلات كاتبة وأجراس المكاتب ترن فى الصالة .. ووقف بصريهما على
بندول الساعة .. على باب حجرة الأستاذ أحمد رشاد .. وكان تحته تمثال
لسقراط .. وكأن الساعة تستمد حركتها من رأس الفيلسوف ..
ودخلا على الأستاذ .. رحب بهما .. لم يسأل عن الماضى .. كان كأنه

— ١٩٠ —

يعرف كل شيء .. وكان الشيب على رأسه زبدى اللون . والوجه منهوك عريق . وسأل صلاح :

— إلى أين وصلتم ؟ ..

فرد الأستاذ في وقار :

— لقد تركتنا ونحن في حرف (الخاء) وعدت إلينا ونحن في حرف

(الخاء) .. الفرق .. يا بنى .. كما ترى نقطة واحدة ..

هز البدوى وصلاح رأسهما .. نظر كل منهما إلى الآخر .

سمعا صوت « أسرار » تخاطب في الصالة موظفا شابا .. هو نفس الذى كانت عنده في المرة الأولى .. « إنها تكره الرعوس البيضاء لأنها تكره الحكمة .. ولذلك لن تتزوج الرجل الذى قالت عنه » ..

وظل الصديقان برهة ثم استأذنا في الخروج لبدء العمل .. وقابلا الشابة .. وسلموا في صمت .. وقالت « أسرار » :

— لقد علمت أنهم الآن يشتغلون في حرف (الخاء) فماذا يا ترى

سيقولون عن الخير والخلقة والخبز وخير والخرافة والخبازى والخروب ؟ !
ونزلت تجرى وتضحك وهى تقول :

— إلى اللقاء الليلة .. لنهيم على وجوهنا في العباسية الشرقية .. تشجعوا

يا رجال فلا يزال في الزمن بقية ..

القاهرة في إبريل سنة ١٩٦٨ .

« تمت بحمد الله »

مكتبة مصر

سعيد جوده السحار وشركاه

تقدم قائمة بمؤلفات عمالقة القصة المصرية

الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله

- | | |
|------------------------|----------------------------|
| (١) القِيطة | (١٥) الجنة العذراء |
| (٢) بعد الغرب | (١٦) خيوط النور |
| (٣) شجرة اللبلاب | (١٧) الباحث عن الحقيقة |
| (٤) شمس الخريف | (١٨) البيت الصامت |
| (٥) غصن الزيتون | (١٩) أسطورة من كتاب الحب |
| (٦) من أجل ولدى | (٢٠) للزمن بقية |
| (٧) سكون العاصفة | (٢١) جوليت فوق سطح القمر |
| (٨) الماضى لا يعود | (٢٢) قصة لم تتم |
| (٩) ألوان من السعادة | (٢٣) الدموع الخرساء |
| (١٠) أشياء للذكرى | (٢٤) الوجه الآخر |
| (١١) النافذة الغربية | (٢٥) حلم آخر الليل |
| (١٢) الضفيرة السوداء | (٢٦) لقاء بين جيلين |
| (١٣) حافة الجريمة | (٢٧) غرام حائر |
| (١٤) الوشاح الأبيض | |

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

رقم الإيداع ٢٥٥٢
الترقيم الدولي ٤ — ٢١٨ — ٣١٦ — ٩٧٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفيحاء



دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه